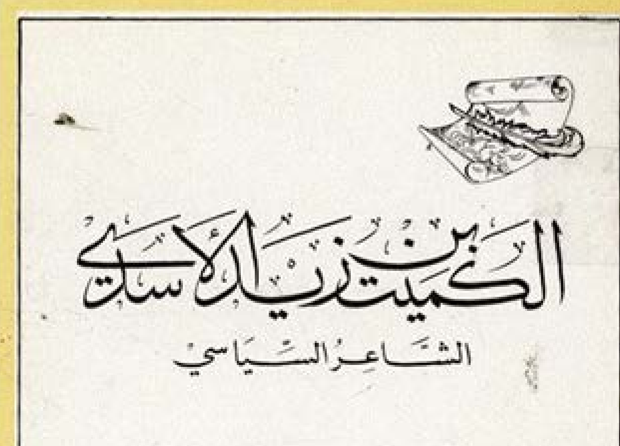
الأعلام من الأدباء والشعراء



الكميت بن زيد الأسدي

الشاعر السياسي

إعداد

مأمون بن محيي الدين الجنان



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



الكميت بن زيد الأسدي

الشاعر السياسي

إعداد
مأمون بن محيي الدين الجنان



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٢ ٦٠٢١ ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠١ - ٣٢ ٦٠٢١ /٩٦١١/٠٠

الإهداء

إلى ابنتي الحبيبة....

إشراقة النور....

غناء الطبيعة....

عبق الزهر....

ترنيمة الحب....

رنيم....

مأمون الجنّان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الشعر العربي في عمومه وعلى تعدد مضامينه واختلاف صوره ومظاهره، يعتبر من ثروتنا الأدبية التي نفخر ونعتز بها، مما يجمعنا في توحُّد دائم الاتصال والترابط، هذا التوحُّد يتحول إلى قوة نتاجية مفيدة متطورة في الوقت نفسه، مما يجعل لهذه القوة مدلولات حيوية مساعدة في إلقاء الضوء على هذا الشاعر أو ذاك.

ولقد حاول بعض النقاد والشراح السابقين، بطرقهم الخاصة رصد شعر الكميت ودراسته وتتبع أخباره وسيرته، وقد استطاعوا أن يلتقطوا المواطن التي كان فيها مادحاً أو هاجياً. وقد عوّلت في هذه الدراسة على كثير من كتبهم القيمة، غير أن الكشف عن الكميت لا ينتهي عند هذا الحد، فقد حاولت التقرب من شخصيته ونفسيته، لمعرفة بعض مواقفه من الحياة، ولنرى ماذا رسبته التجربة في ذهنه. ولعل هذه الدراسة فرصة مواتية ونهزة سانحة أغتنمها لأوجه كل الشكر والامتنان للذين سبقوني في دراسة هذا الشاعر، كما أن دراستهم كانت لي عوناً في كشف الغطاء ونفض الغبار عن تراثنا الأدبي العظيم.

والكميت لم ينل حصته من البحث والتعقب، ولم يكتب المؤرخون له كما فعلوا مع المثلث الأموي [جرير والفرزدق والأخطل]، إما لظروف سياسية أو عقائدية، امما دفعني إلى أن أشير إلى الحقبة المهمة من حياة شاعرنا، وهي الحقبة التي ارتبط اسمه بالشعراء السياسيين. فقد توزع شعره في مدح بني هاشم وبني أمية وهما على طرفي نقيض. وهذا يبدو غريباً من رجل عرف أن الشيء الواحد يمكن أن يقبل الوصفين في ظرفين مختلفين!؟

وهكذا أجد نفسي مجبراً على القول بأن في الحقيقة هناك ما يجذب في شعر الكميت ويأسر الناس إليه، إنه صورة تعتبر للباحثين والدارسين أدباً أصيلاً وعريقاً، وجَدِيراً بكل اهتمام ورعاية.

إن هذا العمل أظهر أن الكميت قد أسهم في إثراء تراثنا الأدبى من واقع ظروفه، وبيئته وتطورها السياسي والاجتماعي، والشيء الوحيد الذي نجح فيه الكميت، أنه ترك للآخرين مصدراً دائماً ينطوي في الوقت نفسه على متعة حقيقية ألا وهو شعره...

وفي هذه الدراسة اعتمدت طريقة شبه موسعة ومتعددة الجوانب حول شاعرنا وما يتصل به من معالم جديدة، وحول الدوافع الخلفية التي شكلت بالضرورة تكوينه الذهني والنفسي وتركيبته الذاتية، إضافة إلى ما يحويه شعره من مقتضيات العقل ونتاجات الفكر العربي.

وقد تمت على عدة فصول:

- الفصل الأول: أشكال الحياة في عصره.
- الفصل الثاني: مدخل نحو الشعر الأموي وأغراضه ـ الشعر السياسي ونشأته ومجمل خصائصه.

الفصل الثالث : نسبه وحياته وخصائصه النفسية ـ علاقة الكميت بالدولة الأموية.

ـ **الفصل الرابع**: أغراضه الشعرية والهاشميات ـ الخاتمة وبعض نماذج من أشعاره وأخباره.

وقد جعلت كشافاً بأسماء المصادر والمراجع التي استعنت بها في إخراج هذه الدراسة، مرتباً حسب التسلسل الأبجدي في آخر هذا الكتاب ووثقته، بأسلوب علمي متدرج (مما يفيد القارىء والدارس مبتدئاً كان أو متبحراً). هذا ما حاولت صنعه ولا أدّعي أنني بلغت في هذا كمالاً، فالكمال لله وحده، ولكنها محاولة آمل أن يجد فيها القارىء ما يصبو إليه وأن أكون قد وفقت في المساهمة ببناء صرح المكتبة العربية الشامخ.

وإن كان ثمة شيء يذكر، فهو ثنائي على أساتذتي الذين منهم تعلمت وعلى كتبهم عوّلت ومن آثارهم اقتبست، غفر الله لهم ولي آمين.

مأمون الجنّان

دمشق ٢٦/ ٤/ ١٩٩٣

الفصـل الأول

الحياة السياسية:

تأثرت الأوضاع السياسية في الحكم الأموي بتجديد الخصومات القبلية بين القحطانية والعدنانية أو بين اليمنية والقيسية، وتميز الحكم الأموي أيضاً بشكل ظاهر بالعصبية عامة، فقد كان هناك عصبية العرب ضد العجم والموالي مثلاً، وبين بني أمية على بني هاشم، والقبائل التي كانت موالية للأمويين على المناوئة لهم كعصبية تغلب ضد القيسية.

ويعتبر هذا العصر عصر الاضطراب السياسي وأحوالها ونشوء الأحزاب والصراع في ما بينها. واشتد هذا الصراع اشتداداً عنيفاً اضطر معه الأمويون إلى اللجوء إلى البطش والقوة والتهديد والمخادعة والرشوة لاكتساب أكبر عدد ممكن من القبائل إلى جانب الخلافة. كل هذا أدى إلى اختلاف الآراء السياسية وفي الحكم، وإلى نشوء أحزاب، يتمسك كل حزب بمذهب أو عقيدة يعمل على الترويج لها والنضال في سبيلها وتجميع الناس حولها، وخاصة في

الحجاز والعراق.

كما تميز الحكم الأموي بتحويل الخلافة إلى ملك وراثي مخالف لسياسة الراشدين التي كانت تعتمد على الشورى، مما جرَّ ويلات كثيرة على المسلمين وأشاع بينهم الفرقة والانقسام.

غير أن هناك أمراً جديراً بالذكر، هو أن عدداً من الخلفاء الأمويين كانوا فعلاً رجال دولة وسياسية بالمعنى الصحيح. فكان لديهم الدهاء والذكاء، وقوة الشخصية، وسعة الصدور والحزم والجدّ، والقدرة على تحمُّل أعباء الحكم وحسن التصرف في الأمور العظيمة.

وكان حكم الأمويين للدولة حكماً مركزياً، يعود الولاة إلى الخليفة في مختلف الشؤون؛ وهم يحكمون الأقاليم باسمه كزياد[1] والحجّاج[2] وآل المهلب[3] وسواهم، وليس لهم سياسة شخصية

---

(١) هو زياد بن أبيه أمير من قادة الفاتحين، من كبار رجال الدولة الأموية أصله من الطائف أمه «سمية» يكتنف الغموض نسبه. ناصر علياً ضد الأمويين حتى إذا توفي عليّ ألحقه معاوية بنسب أبيه أبي سفيان بعد أن استدعاه إلى دمشق وولاه الكوفة. توفي بالطاعون (٥٣ هـ) في الكوفة.

(٢) هو الحجاج بن يوسف الثقفي توفي في واسط (٩٥ هـ). قائد وخطيب عربي ولد في الطائف، واشتهر بولائه للبيت الأموي، ولاّه عبد الملك بن مروان إمرة جيشه فقضى على ابن الزبير وابن الأشعث وتولى مكة والمدينة والطائف والعراق وقضى على الخوارج. عني بأمور الريّ والإصلاح النقدي، اشتهر بالخطابة والشدة في الحكم.

(٣) تعود هذه النسبة إلى أبي سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي أمير خراسان، وأولاده العشرة نسبة وولاء. انظر الأنساب للسمعاني ٤١٨/٥ طبعة دار =

خاصة، بل كانوا يتقيَّدون بالسياسة الأموية العامة، ويسيرون وفقاً للخط الذي رسمه الخليفة.

وفي مقدمة الأحزاب التي حاربت بني أمية في الحكم كان الشيعة والخوارج والزبيريين، في الحجاز والعراق وأما في الشام فقد كان أقل الأقطار الإسلامية اضطراباً وأكثرها تأييداً للأمويين بفضل السياسة التي اتبعها معاوية[1] في استمالة هذا القطر منذ ولايته عليه زمن الراشدين، ولذا كانت بلاد الشام منطلق السياسة الأموية ومعقل حزبهم ومركز دولتهم.

وقد نجم عن هذه الصراعات بين الحزب الحاكم والأحزاب المناوئة له، آراء مختلفة في السياسة والحكم. وراحت الفئات المتصارعة تجمع الرأي العام الإسلامي حولها وتجتهد في الدعاية لمذاهبها والترويج لنظرياتها في السياسة.

وقد ساعد هذا على أن يتلوّن الأدب شعره ونثره بألوان هذه النظريات السياسية، وحرص كل حزب على أن يكون له دعاته من الشعراء والخطباء، يحركون عواطف الناس ويثيرون حماسهم من ناحية ويستميلون أفكارهم بالإقناع والحجة من ناحية ثانية. فما هو الدور الذي لعبته الأحزاب على مسرح الحياة السياسية في العصر الأموي؟ وما هي الآراء التي تعرض لها الخطباء والشعراء؟ إليك أولاً عزيزي القارىء التعريف بالأحزاب وارائها ولنبدأ أولاً:

= الجنان.

(١) هو معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية، توفي سنة (٦٠ هـ).

ـ الحزب الشيعي:

وهم حزب عليّ القائلون بنظرية الوراثة وقد سمّوا شيعة لأنهم شايعوه وتحزبوا له. وكانوا يؤمنون منذ وفاة النبي ﷺ بحق علي بالخلافة على أساس أنه الإمام الوريث لابن عمه، ولأنه أصل سلالة آل البيت النبوي، وليس أحد أولى منه بزعامة المسلمين بعده، معتمدين في ذلك على نصوص تقول بأن النبي أوصى قبل وفاته لعلي. وحصروا منصب الإمامة في بنيه.

إلا أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فصبروا حتى كانت فتنة في عهد عثمان فعملوا لعلي وبايعوه وقاتلوا معه، ولكنهم صدموا بخدعة التحكيم، واستئثار بني أمية بالسلطة، الأمر الذي زاد فيهم النقمة.

وحاربوا الأمويين مرات عديدة إلى أن كان مقتل الحسين في كربلاء ترك ذيولاً سياسية بعيدة المدى عظيمة الأثر وأذكى التشيع إلى أقصى حد، وعمل على توحيد الشيعة وإضرام الحماسة في صدورهم.

وأصبح التشيع عقيدة متغلغلة في النفوس ونهضوا ينادون بثارات الحسين، وغدت حادثة كربلاء الملطخة بدماء ابن بنت الرسول مثاراً للحزن والنقمة والحماس ضد بني أمية لا بين الشيعة وحدهم بل بين جميع المؤمنين، وإن لم يكونوا من الشيعة.

ومن اشهر فرق الشيعة «الكيسانية»[1] التي تدعو لابن الحنفية[2]، ومن زعمائها الكبار المكونين لآرائها المختار الثقفي[3] والكيسانية صاحبة نظريات متطرفة في التشيع، إذ تقول بالتناسخ وتعتبر النبوة مستمرة في البيت العلوي، وتقول كذلك بالرجعة، أي عودة الإمام المهدي، الذي هو ابن الحنفية، وأبرز شعراء الكيسانية كثيّر بن عبد الرحمٰن[4] الذي يقول في ابن الحنفية:

هو المهدي خبرناه كعب
أخو الأحبار في الحقب الأوالي

---

(١) انظر عن هذه الفرقة: «التبصير في الدين لأبي المظفر الإسفراييني صفحة ٣٠» و «الملل والنحل للشهرستاني ١٩٦/١» و «الملل والنحل لأبي حزم ١٧٩/٤» و «مروج الذهب للمسعودي ٨٧/٣» و «الفرق بين الفِرق ٣٨ وقد نسبهم إلى كيسان مولى أمير المؤمنين علي كرَّم الله وجهه».

(٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية (٢١ ـ ٨١ هـ) من زوجته خولة. رأى بعض الشيعة إمامته بعد مقتل الحسين وعرفوا باسم الكيسانية ثم انقرضوا. عاش في المدينة وتوفي بها.

(٣) هو ابن أبي عبيد المختار الثقفي، من زعماء الثائرين على بني أمية اشترك في ثورة مسلم بن عقيل فسجنه عبيد الله بن زياد ونفاه، ثم ثار في الكوفة طلباً بثأر الحسين انتصر قائده إبراهيم بن مالك الأشتر على الجيش الأموي في معركة الخازر حيث قتل عبيد الله بن زياد. قتل في محاولة يائسة سنة (٦٧ هـ) للدفاع عن الكوفة وقد حاصره فيها مصعب بن الزبير.

(٤) هو كثيّر عزة توفي (٧٢٣ هـ) شاعر أموي أقام في المدينة. غالى في تشيعه وقال بالرجعة والتناسخ وبإمامة المهدي محمد ابن الحنفية تغزّل بعزة فسمي بها.

وإذا كانت «الكيسانية» من غلاة الشيعة فإن «الزيدية» عند المؤرخين من فرقها المعتدلة وهي تقول بإمامة زيد بن علي[1]، ومن أهم مبادئها «مبدأ الوصاية» وهو أن النبي أوصى لعلي بن أبي طالب عند غدير خم[2]، على أنّ الزيدية ترفض ما نادت به الكيسانية من أمر الرجعة والتناسخ، وتشترط أن يكون الأئمة من أبناء فاطمة، وأن يتميزوا بفضائل أهمها الورع والشجاعة. وأعظم شعراء الزيدية الكميت بن زيد الأسدي «موضوع دراستنا» وهو صاحب مجموعة قصائد في الذود عن مبادىء هذه العقيدة. وفي قضية الوصية يقول:

ويوم الدّوح دوح غدير خمّ
أبان له الولاية لو أطيعا

والكميت يدحض حق بني أمية في الخلافة ويردُّ على مزاعمهم ويؤيد آل البيت، كقوله:

---

(١) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٨٠ ـ ١٢٢ هـ) دعا إلى الثورة في عهد هشام بن عبد الملك، وحدد منهاجاً لثورته أهم ما جاء فيه: جهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسْم الفيء بين أهله بالسواء ورد المظالم. ففشلت ثورته وقتل. إليه ينسب المذهب الزيدي الشيعي.

(٢) غدير خم: هو نبع في واد قريب من الجحفة على الطريق بين مكة والمدينة، تقول الشيعة: إن النبي توقف عنده أثناء عودته من حجة الوداع وسمّى علياً خليفة له. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ٣٩٠، دار صادر د. ت. ومعجم البكري ٢/ ٥١٠ عالم الكتب بيروت ١٩٨٣.

وقـــالـــوا: ورثنـــاهـــا أبـــانـــا وأمنـــا
ومـــــــا ورثتهـــــــم ذاك أم ولا أب

يــرون لهـــم فضــلاً علــى النــاس واجبــاً
سفـــاهـــا، وحـــق الهـــاشميـــن أوجـــب

هـــم شهـــدوا بـــدراً وخيبـــر بعـــدهـــا
ويـــوم حنيـــن والـــدّمـــاء تصبـــب

فـــإن هـــي لـــم تصلـــح لحـــيّ ســـواهـــم
فـــإن ذوي القـــربـــى أحـــق وأقـــرب

والشعراء المادحون لآل البيت في هذا العصر كثرة منهم الفرزدق[١] وأبو الأسود الدؤلي[٢]، وابن مفرغ الحميري[٣].

---

(١) هو همام بن غالب بن صعصعة بن مجاشع الدارمي التميمي من شعراء العهد الأموي ولد في البصرة (نحو ٦٤١ وتوفي ٧٣٢) قضى حياته في مدح الناس وهجوهم، له نفس قوي ولغة وافرة الألفاظ والتعابير. اشتهر بالهجاء الذي دار بينه وبين جرير. له ديوان دوّنه محمد بن حبيب النحوي البصري. ونقائض جرير والفرزدق.

(٢) هو أبو الأسود الدؤلي شاعر من قبيلة «ديل» من أنصار عليّ بن أبي طالب حضر معركة صفين، إليه ينسب أصول النحو العربي. انظر كتاب إنباه الرواة للقفطي ٤٨/١، مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٨٦.

(٣) هو إسماعيل بن محمد بن مفرغ الحميري أبو هاشم أو أبو عامر: شاعر إمامي متقدم وقد أهمل ذكر الحميري وصرف الناس عن رواية شعره لما فيه إفراط في النيل من بعض الصحابة وأزواج النبي، وكان يتعصب لبني هاشم تعصباً شديداً. ولد في نعمان (١٠٥ وتوفي ببغداد وقيل بواسط ١٧٣ هـ) له ديوان مطبوع جمعه وحققه شاكر هادي شكر.

ويرجع بعض الدارسين بذور التشيع لآل البيت إلى الفترة التي تلت موت النبي ﷺ. ولئن لم تظهر هذه العقيدة قوية في خلافة أبي بكر وعمر، إلا أنها غدت واضحة جلية في زمن عثمان، وظهرت بعد بيعة عليّ الذي اتخذ الكوفة مركزاً لتصريف سياسته.

ومما دعا إلى تعاظم شأن الشيعة في العراق وفارس مساواة الإمام علي بين العرب والموالي. فلما آل الحكم إلى الأمويين وتعصب هؤلاء للعنصر العربي شعر الأعاجم بالحرمان ونقموا على بني أمية وأذكوا نار الثورة عليهم. ولقد أقلق الحزب الشيعي دولة بني أمية وبرز إلى ميدان القتال، فكانت ثورة التوّابين أيام عبد الملك[1]، ثم ثورة المختار الثقفي. غير أن الشيعة لما منوا بالهزيمة، راحوا يعملون سراً ويتحينون الفرص لينتزعوا الخلافة ويجعلوها في أبناء عليّ، وقد جمعوا معهم الفرس الذين نقموا على بني أمية بسبب تعصّبهم للعنصر العربي، وما لاقوه من معاملة سيئة ساعدت فيما بعد وكانت عاملاً مهماً في إسقاط الدولة الأموية.

ـ الحزب الأموي أو الحزب الحاكم:

لم يكن لبني أمية من المكانة في الإسلام ما كان لآل البيت

---

(١) هو عبد الملك بن مروان (٢٦ ـ ٨٦ هـ) الخليفة الأموي الخامس ولد في المدينة وتوفي بدمشق وحّد الإمبراطورية بعد أن قضى على مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله منافس البيت الأموي على الخلافة. حارب الخوارج وأوقع بهم أخضع ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث في دير الجماجم. انشأ البريد. عرّب دواوين الدولة. وصك النقود الذهبية.

وأنصارهم، وما استيلاؤهم على الحكم إلا نتيجة لسياسة دنيوية تقوم على الحنكة والمخادعة لا على الشريعة. لهذا كان لا بدّ لهم من نظرية يجابهون بها عقيدة الشيعة فزعموا أنّهم ورثة عثمان وأن الله اصطفاهم من بعده للخلافة وانتدبهم للثأر من قتلته.

وذهبوا إلى أن خلافتهم من عند الله وليست من عند الشعب. ومن هنا، فإن الله وحده يحاسبهم وليس على الشعب إلا القبول بما قضاه الله وقدّره.

وقد لجأوا في ذلك إلى شيء من التمويه المبني على منطلق ديني هو الإيمان بقدرة الله وإراداته التي لا ترد، فقد زعموا أن الله لو لم يكن راضياً عن خلافتهم لانتهى الحكم إلى سواهم. وأطلقوا على هذه العقيدة تسمية «الحق الإلهي» التي اندفع ولاة بني أمية وشعراؤهم يروّجون لها، ويعلنونها على الملأ في كل المناسبات، وكان هؤلاء يحيطون الخلفاء الأمويين بصور من المهابة والإجلال على ما كان يذهب شعراء الشيعة في نعت أئمتهم. وقد ازداد ما سمّوه «حقهم الإلهي» بالخلافة رسوخاً بعد معركة صفين[1] والتحكيم. وفي ذلك يقول شاعرهم الأخطل[2]:

---

(١) صفين: موضع على الحدود السورية على شاطىء الفرات الأيمن بين الرقة واسكي مسكنة. عنده تلاحم جيشا علي ومعاوية سنة (٣٧ هـ) وبعد هدنة مؤقتة استؤنف القتال الذي انتهى بالتحكيم.

(٢) هو غياث التغلبي الأخطل (٦٤٠؟ ـ ٧١٠؟) هكذا لقّب لطول لسانه أو لارتخاء أذنيه كان نصرانياً من بني تغلب المونوفيزيين. اتصل بالأمويين فغدا شاعرهم الخاص ينصرهم بلسانه كما ينصرهم قومه برجالهم يفيض بمدحهم ويندفع في هجو أعدائهم حتى جاء بفن يجدر أن يسمى بالشعر السياسي =

ويـــومَ صفيـــنَ والأبصـــارُ خـــاشعـــةٌ
أمـــدَّهـــم إذ دعـــوا مـــن ربِّهـــم مَـــدَدُ

وتعدت الخصومة بين الأمويين ومعارضيهم الخلاف في الرأي إلى الشتيمة والسباب، وكان الشعراء من الفريقين يجتمعون فيتبارون بالتهاجي والتفاخر، ثم يتجالدون بالسيوف، وعلى رأس هذا الفريق سديف[1] شاعر بني هاشم، وشبيب[2] شاعر بني أمية.

وقد دفعت هذه الاعتبارات البيت الأموي إلى الاهتمام بالشعر واصطناع الشعراء، فأنفقوا الأموال بسخاء لإثبات حقهم في السلطة، واستخدموا الشعراء والخطباء لكي يؤيدوا ملكهم، فدخل الهجاء السياسي عصره الذهبي بفضل الحزبية العارمة آنذاك.

وكما شهد العصر الأموي نهضة الشعر السياسي شهد كذلك نهضة الهجاء الأدبي بين شعراء القبائل الذين لم يقفوا بعيداً عن ميدان الصراع. ومن أبرز مظاهر هذا الهجاء الذي تناول العصبية القبلية ما

= ديوانه كبير مشهور دوّن قصائده أبو سعيد السكري ومحمد بن عباس اليزيدي اهتم بنشر مخطوطاته الأب انطون صالحاني اليسوعي بين ١٨٩٠ ـ ١٩٣٨ في بيروت.

(١) هو سديف شاعر حجازي من أهل مكة توفـي (٧٦٣) كان متعصباً لبني هاشم وفي أيام السفاح كان يحضه على بني أمية، ثم تحزّب لمحمد بن عبد الله بن الحسن على المنصور العباسي فأمر المنصور بدفنه حياً.

(٢) هو شبيب بن يزيد ابن البرصاء من شعراء الدولة الأموية وترجمته طويلة في الأغاني ٦/١٣٨ توفي نحو (١٠٠ هـ).

دار بين جرير[١] والفرزدق والأخطل، والذي عرف عند الأدباء باسم النقائض[٢].

ـ حزب الخوارج:

وقد سمّوا كذلك لخروجهم عن طاعة علي يوم التحكيم بعد قبوله وقف القتال في صفين. والنزول على مبدأ التحكيم وكانوا يذهبون في مبادئهم إلى أن الخلافة يمكن أن تكون في قريش أو غيرها. ويحبون أن لا يكون في العالم إمام أصلاً. وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً، نبطياً أو قرشياً، رجلاً أو امرأة. وهم يعتبرون شرط الخلافة هو الإسلام والتقوى. وذلك بالاستناد لقول النبي ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى...»[٣] وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[٤].

وقد عرفوا في بادىء الأمر «بالحرورية» نسبة إلى بلدة

---

(١) هو جرير (٦٥٣؟ ـ ٧٣٣) شاعر أموي ولد في بادية اليمامة كنيته أبو حزرة امتاز بالهجاء لا سيما هجو خصميه الأخطل والفرزدق وقد كوّن معهم ما سمّي بالمثلث الأموي. له ديوان يتضمن الفنون التقليدية من مدح وهجاء وفخر وغزل ورثاء جمعه أبو جعفر بن حبيب.

(٢) النقائض: جمع النقيضة: وهي قصيدة ينقض بها شاعر قصيدة شاعر آخر. أي يبطل ويفسر ما جاء فيها بالرد عليه ودحض ما يقول ويدعي ويكون لها وزن قصيدة الخصم وقافيتها.

(٣) رواه أحمد بن حنبل ٥/٤١١.

(٤) سورة الحجرات الآية: ١٠.

«حروراء»[١] قرب الكوفة التي لجأوا إليها بعد تخليهم عن نصرة الإمام. وكانوا يسمّون أنفسهم «الشراة» استناداً لقوله تعالى: ﴿من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ الآية[٢].

ولقد أخذ الأمويون الخوارج بشدة وإرهاب، وعمدوا إلى إخماد ثورتهم بالقوة وسفك الدماء. أما هم فقد استماتوا في سبيل عقيدتهم، وكانوا يُلقون بأنفسهم في حومات الموت ويناضلون نضالاً رائعاً معتقدين أنهم يذهبون بذلك شهداء. وقد تعددت فرق الخوارج ومن أشهرها: «الأزارقة»[٣] و «الإباضية»[٤]، و «الصفرية»[٥]

---

(١) حَروراء: بفتحتين وسكون الواو. يجوز أن يكون مشتقاً من الريح الحرور. وهي الحارة. وكأنه أنث نظراً إلى أنه بقعة. وقيل: هي قرية بظاهر الكوفة. وقال ابن الأنباري: حروراء كورة، وقال أبو منصور: الحرورية منسوبون إلى موضع بظاهر الكوفة نسبت إليه الحرورية من الخوارج. انظر معجم البلدان ٢/ ٢٤٥ دار صادر.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠٧.

(٣) الأزارقة: هم فرقة من الخوارج تنسب إلى نافع بن الأزرق استولوا على الأهواز وكرمان انتخبوا قطري بن الفجأة قضى عليهم المهلب بن أبي صفرة. قالوا: «إن مخالفيهم من المسلمين يشركون وإن من لم يعتنق مذهبهم يستحل دمه ودم نسائه وأولاده».

(٤) الإباضية: فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن إباض وتقابل الأزارقة والصفرية. قاموا بثورات متعددة ضد الأمويين أهمها ثورة عبد الله بن يحيى (٧٤٧) بسطوا فيها نفوذهم على اليمن وحضرموت كما ثاروا على السفاح في عمان (٧٥١) فقضى على حركتهم دون أن يقضي على تأثيرهم الديني والفكري الذي انتشر انتشاراً واسعاً بين البربر أسسوا الدولة الرستمية (٧٦١ ـ ٩٠٨).

(٥) الصفرية: وهي فرقة من الخوارج الأزارقة والإباضية وهم أتباع زياد بن =

و «النجدية»[١] وهم رغم تعدد فئاتهم وكثرة فرقهم يرجعون في عقيدتهم إلى أساس واحد وهو «لا حكم إلا لله» وقوام نظريتهم السياسية «المساواة» بين المسلمين كافة ورفض الوصية ومبدأ الوراثة. فالخلافة في نظرهم ليست لفئة في الإسلام دون أخرى وإنما هي حق لكل مسلم كفء، وشروط الكفاية عندهم التقوى والزهد.

وقد حارب الخوارج في البداية عليّ بن أبي طالب، بعد تكفيرهم إيَّاه للأسباب التي تقدَّمت، كذلك حاربوا الأمويين زمن معاوية ويزيد بن عبد الملك بن مروان. وقد تمكنوا من توسيع رقعة نشاطهم في فارس، وحضرموت[٢]، واليمامة والبحرين والموصل، وشمال العراق.

وقد أضعف الحجّاج شوكتهم بحملاته المستمرَّة عليهم، لكنهم

= الأصفر وقولهم كقول الأزارقة في فسافة هذه الأمة ولكنهم لا يبيحون قتل نساء مخالفيهم ولا أطفالهم.
انظر التبصير في الدين للإسفراييني صفحة ٥٣ عالم الكتب ١٩٨٣.

(١) النجدات العاذرية: وهم فرقة من الخوارج أصحاب نجدة بن عامر الحنفي وقيل عاصم. استولى على اليمامة والبحرين سنة (٦٦ هـ) وفي سنة (٦٩ هـ) قتله أصحابه. انظر العبر ١/ ٧٤ والملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٦٥. والتبصير في الدين للإسفراييني صفحة ٥٢.

(٢) حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن (اليمن) بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف. وبضم الميم لغة هذيل وأنشد لأبي صخر:

حَدَت مزنة من حضرموت مرية
ضجوج له منها مُدَر وحالب

انظر معجم البلدان للحموي ٢/ ٢٧٠ ومعجم البكري ٢/ ٤٥٥ عالم الكتب.

ظلّوا يثورون على الأمويين حتى أواخر دولتهم. ومن أشهر قادتهم شبيب الشيباني[١]، والضحّاك بن قيس[٢]، وأبو حمزة الخارجي[٣]، الذي دخل المدينة وخطب فيها خطبته المشهورة وقيل بل كانت الخطبة في مكة.

ومن أبرز شعراء الخوارج عمران بن حطّان[٤]، والطِّرماح بن الحكيم[٥]، وكانا يصوران مبادىء هذا الحزب تصويراً دقيقاً صادقاً، ومن أهمها الخروج للجهاد في سبيل الله وفي شعرهم معان من القرآن وصور مستمدة من آياته. ونفحات من الإخلاص لعقيدتهم والإيمان

---

(١) هو شبيب بن يزيد الشيباني زعيم خارجي وثائر على الأمويين قاوم جيوش الحجّاج سيَّر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان جيشاً لنجدة الحجّاج فقهر شبيباً عند نهر الدجيل حيث غرق وتوفي (٧٧ هـ).

(٢) هو الضحاك بن قيس الشيباني زعيم الخوارج الحرورية استولى على الكوفة واتخذها مركزاً لرد هجمات مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين احتل الموصل قتله مروان في نواحي ماردين سنة (١٢٩ هـ).

(٣) هو المختار بن عوف الأزدي أبو حمزة ولد في البصرة خارجي إباضي ثار على الأمويين ودعا إلى مبايعة عبد الله طالب الحق في حضرموت حارب الدعوة العباسية، قتل بأمر من مروان الثاني سنة (١٣٠ هـ) وانظر جمهرة خطب العرب ٢/ ٤٦٧.

(٤) هو عمران بن حطّان السدوسي شاعر فصيح من أهل البصرة اشتهر بطلب العلم والحديث أدرك صدراً من الصحابة روى عنهم ورُوي عنه، تزوج امرأة من الخوارج أمل هدايتها لمذهبه فحولته لمذهبها فغدا من أشد دعاة الخوارج، طورد فتنقل في البلاد متوارياً ومات في توّاريه سنة (٨٤ هـ).

(٥) هو الطرماح بن الحكيم الطائي توفي حوالي (٧٢٣) من شعراء صدر الإسلام، سافر إلى الكوفة وإيران واعتنق مذهب الخوارج فغدا من كبار شعرائهم له ديوان.

بها والإقبال على الموت في سبيلها، يقول الطِّرماح:

لقــــد شقيـــت شقـــاء لا انقطـــاع لـــه
إن لـــم أفـــز فـــوزة تنجـــي مـــن النـــار
والنـــار لـــم ينـــج مـــن روعـــاتهـــا أحـــد
إلا المنيـــب بقلـــب المخلـــص الشـــاري[١]

وهنا يذهب الطِّرماح إلى أن النجاة من النار يوم القيامة لا تكون إلا بالرجوع إلى الله والموت في سبيله.

ـ الحزب الزبيري:

أما حزب الزبيريين فقد بدأ بالظهور زمن معاوية، وكان هذا الحزب يعارض معاوية في أخذ البيعة لابنه يزيد[٢]، لكن معاوية تمكن من غرضه بالحيلة والدهاء. ولقد كان على رأس الزبيريين عبد الله بن الزبير[٣] أحد زعماء قريش الذي وقف في وجه الأمويين

---

(١) يشير في البيت الثاني إلى الآية التي وردت في سياق الكلام على عقيدة الخوارج.

(٢) هو يزيد الأول الخليفة الأموي الثاني ابن معاوية وميسون الكلبية (٢٥ ـ ٦٤ هـ) اشترك في حياة والده في حملة على القسطنطينية، في عهده قتل الحسين بن علي في كربلاء (٦١ هـ) أرسل حملة إلى المدينة ومكة بقيادة مسلم بن عقبة والحصين بن النمير لإخضاع منافسه ابن الزبير، انصرف إلى اللهو والخمرة. غير أنه أصلح الإدارة والمالية توفي «بحوارين» من أرض حمص.

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام (١ ـ ٧٣ هـ) وأمه أسماء كبرى بنات أبي بكر =

ودعا بالخلافة لنفسه بعدما صانع معاوية طيلة عهده وبايع يزيداً ولكنه نقض بيعته بعد مقتل الحسين، وأعلنها ثورة فعلية، فاستجاب له كثيرون وبايعوه بالخلافة، فحاربه يزيد دون أن يتمكن منه.

وبعد موت يزيد استقر الأمر لابن الزبير واشتد فاستولى على الحجاز بكامله وعلى العراق واليمن ومصر، وكان قد أرسل أخاه مصعباً[1] إلى العراق ليأخذ له البيعة من أهله، وقسم من بلاد الشام، وساعدته القبائل القيسية وكاد أمر الخلافة يؤول إليه، حتى أنَّ مروان بن الحكم[2] همَّ بمبايعته فردَّه عن ذلك عبد الله بن زياد. ولكن انتصار مروان بن الحكم بمؤازرة القبائل اليمنية في معركة مرج

= وأخت عائشة زوج النبي. اشترك في فتوحات فارس ومصر وشمالي إفريقيا حارب إلى جانب عائشة في معركة «الجمل»، عاش في المدينة وعارض خلافة يزيد الأول ابن معاوية. ثار على ولاة الأمويين في الحجاز وأعلن نفسه خليفة حافظ على نفوذه في العراق بعد معركة «مرج راهط» قضى عليه الحجاج وأخضع مكة والمدينة لنفوذ البيت الأموي.

(١) هو مصعب بن الزبير (٢٦ ـ ٧١ هـ) أخو عبد الله بن الزبير. ناب عن أخيه في العراق. قاوم الخوارج بشدة وحارب المختار الثقفي وقضى عليه (٦٨٧). خرج إليه عبد الملك بن مروان بنفسه على رأس جيشه وعرض عليه الأمان وولاية العراقيين. على أن يرجع عن القتال، فأبى. قتل في المعركة عند دير الجاثليق. اشتهر بشجاعته وكرمه.

(٢) هو مروان بن الحكم (٢ ـ ٦٥ هـ) الخليفة الأموي الرابع به انتقلت الخلافة من السفيانيين إلى المروانيين. دافع عن عثمان واشترك في معركة الجمل. بويع بالخلافة في الجابية ثم في دمشق. انتصر على القيسين أنصار ابن الزبير في معركة «مرج راهط» واستولى على مصر. ضبط المقاييس والموازين. مات بالطاعون في دمشق.

راهط[1] كان ينذر بالقضاء على زعامة ابن الزبير. وحين انتقلت الخلافة إلى عبد الملك سيّر جيوشه إلى العراق فقتل مصعباً ثم أرسل الحجَّاج ليتولى شأن أخيه عبد الله في الحجاز فحاصره الحجّاج في مكة وقتل ابن الزبير وأنصاره بعد أن قضى عليهم الحجاج قضاءً مبرماً.

وكان الزبيريون يستندون في دعوتهم إلى:

(أ) ـ إن الخلافة حق لقريش وحدها، وقد أعلن أبو بكر ذلك يوم السقيفة[2] وعبد الله بن الزبير من كرام قريش وزعمائها وحفيد أبي بكر من ابنته أسماء فلماذا لا تكون الخلافة له؟ لا سيما وأنه بعد موت معاوية أصبح أكثر القرشيين كفاءة وعلماً وفضلاً وتقى، بينما يزيد خليفة معاوية مشهور بالخلاعة والمجون.

(ب) ـ إن عبد الله نشأ في بيت النبي ﷺ، وقد ربته عائشة، وشهد كثيراً من المواقع، وسماه الرسول حواريّه «أي تلميذه»[3] وهو

---

(١) مرج راهط: موضع في سورية شمالي دمشق. اشتهر بالمعركة التي انتصر فيها مروان بن الحكم على القيسيين وقائدهم الضّحاك سنة (٦٨٤). ووطد أركان الخلافة الأموية.

(٢) يوم السقيفة: هو يوم بيعة الصديق: حين اجتمع الأنصار بعد موت النبي ﷺ على سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ليبايعوه، فذهب إليهم أبو بكر ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة. وروى لهم أن النبي ﷺ قال: «لا يصلح هذا الأمر إلّا لهذا الحيّ من قريش» فرجعوا إلى قوله وبايعه عمر ثم بايعه الناس. انظر فتوح البلدان للبلاذري صفحة ٣٣ وما بعدها ـ دار الكتب العلمية.

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة باب فضائل أصحاب رسول الله (١١) رقم الحديث ١٢٢ وهو عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ يوم قريظة: «من يأتينا بخبر القوم؟». فقال الزبير: أنا. فقال: «من يأتينا بخبر القوم؟» قال الزبير: أنا. =

أحد الستة الذين اختارهم عمر للشورى؛ وهو الذي أمَّره عثمان على داره حين حاصره الخصوم، ولهذه الأسباب كان الاعتقاد بأن الخلافة من حقه لا من حق أحد سواه.

ومن الشعراء الذين اتصلوا برجال هذا الحزب عبيد الله بن قيس الرّقيات[1] الذي التحق بمصعب وأكثر من مديحه ونال من الأمويين بغزله الفاحش وتعرضه فيه لأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك[2]. على أن ابن قيس الرقيات لم يكشف في شعره عن ملامح بينة في سياسة الحزب الزبيري، ولم يكن داعية صريحاً لمعتقدهم السياسي[3].

= ثلاثاً. فقال النبي ﷺ: «لكل نبيٍّ حَوَاريٌّ، وإنَّ حوَاريَّ الزبير». ورواه أيضاً البُخاري باب الجهاد ٤١ ـ ومسلم في فضائل الصحابة ٤٨ ـ وأحمد بن حنبل ٨٦/١.

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيّات توفي نحو (٧٠٥) شاعر قرشي. ناصر الزبيريين ثم والى الأمويين «ديوانه» يحوي اشعارا سياسية تاريخية.

(٢) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان (٤٨ ـ ٩٦ هـ) أبو العباس: من ملوك الدولة الأموية في الشام في زمنه امتدت حدود الإمبراطورية الأموية إلى بلاد الهند، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام. وكان نقش على خاتمه: «يا وليد إنك ميت». انظر الأعلام ١٢١/٨.

(٣) إذا تأملنا قصائد الشاعر في مديح مصعب لم نجد فيها عرضاً لمبادىء الحزب الزبيري أو تأكيداً لعقيدة زبيرية. فقد كان يعظم قريش ويشيد بأمجادها حتى اعتبر بحق شاعر قريش، والقصيدة الهمزية في مدح مصعب من قصائده الدالة على ميزة شعره ونزعته السياسية ومنها:

أقفرت بعد عبد شمس كداء
فكديٌّ فالركن فالبطحاء
وحسان مثل الدمى عشميا

ـ حزب الأنصار:

كانت عداوة الأنصار لبني أمية شديدة بدأت في حياة النبي ﷺ حين حاربوا إلى جانبه ضد أبي سفيان[1]، وقويت أيام عثمان حين تسلّط الأمويون على شؤون الدولة وأساءوا إلى حرمة الأنصار ومصالحهم. ولما تولى عليّ الخلافة كان الأنصار أحلافه، ساعدوه في معركة الجمل[2]، وحققوا له النصر، كما ساعدوه في وقائع كثيرة ضد معاوية حتى ضجَّ معاوية من بطشهم وقال: «ما سألت عن فارس مات من أهل الشام إلا قيل لي قتلته الأنصار».

لقد أخذ الأنصار يشفون ما في صدورهم من غلّ نتيجة كرههم الشديد للأمويين، فقد اندفع شعراؤهم يهجون بني أمية بألسنة حداد، ويتغزلون بنساء الأمويين كيداً لهم، لكن دهاء معاوية وسياسته كانا

= ت عليهنَّ بهجة وحياء
لا يعن العباب في موسم النا
س إذا طاف بالعباب النساء

(١) هو صخر بن حرب بن أمية أبو سفيان (توفي ٣١ هـ). ثري مكي من قريش كان من أشد المناوئين للإسلام. قاد المشركين ضد المسلمين في أحد والخندق. أسلم يوم فتح مكة وجاهد مع المسلمين. والد معاوية مؤسس الدولة الأموية.

(٢) جرت بين علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وعائشة سنة (٣٦ هـ) سميت كذلك لأن عائشة كانت تثير حماس المناوئين لعلي وهي على جملها. أسرت ثم أطلق سراحها.

كفيلين بإسكات الأنصار، فلما قام الحزب الزبيري انضم قسم إليه وانضوى القسم الآخر إلى التشيع.

تلك صورة عن الحركات السياسية في العصر الأموي. أما النظام السياسي الذي أشرنا إليه في مطلع هذا الفصل، فقد كان نظام الخلافة الموروثة وكان معاوية أول الخلفاء الأمويين، وهو الذي حوّل الحكم في الإسلام من الشورى إلى ملك وراثي تتوارثه أولاده معتمدين على القوة والدهاء. وكان الأمويون يستعينون في تصريف أمور الدولة بآراء ذوي الحنكة الذين هم بمثابة وزراء. وقد أطلق بالفعل لقب الوزير على زياد بن أبيه في عهد معاوية وعلى روح بن زنباع[1] زمن عبد الملك.

وقد وسّع الأمويون نظام الكتابة في دولتهم نظراً لتشعب الوظائف آنذاك وكان عدد الكتّاب في نظامهم خمسة، أرفعهم شأناً كاتب الرسائل، والأربعة الباقون يتولون على التوالي شؤون الخراج، والجند، والشرطة والقضاء، وأشهر كتاب الرسائل سالم كاتب هشام بن عبد الملك وعبد الحميد[2] كاتب مروان بن محمد.

---

(١) هو روح بن زنباع بن سلامة الجذامي أبو زرعة توفي (٨٤ هـ) أمير فلسطين كان عبد الملك بن مروان يقول عنه: جمع طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز. الأعلام ٣/ ٣٤ دار العلم للملايين ١٩٩٠.

(٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري المعروف بالكاتب. يضرب به المثل في البلاغة وعنه أخذ المترسلون، أصله من قيسارية سكن الشام، واختص بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية. ويقال: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد». له رسائل تقع في ألف ورقة طبع بعضها. توفي (١٣٢ هـ) في بوصير (مصر). انظر أمراء البيان ١/ ٣٨ والأعلام =

ومن الوظائف السياسية الهامة زمن الأمويين وظيفة الحجابة، فقد اتخذ معاوية حاجباً يمنع أحداً من الدخول عليه إلاّ بعد استئذانه. أما من حيث الإدارة فقد وسَّع الأمويون نظام الدواوين. قال الماوردي في تعريفه: «والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيش والعمال»[1].

وكان عمر بن الخطاب أول من اتخذ الديوان في الإسلام. ولفظة ديوان فارسية الأصل، وتعني السجل، وقد أطلق هذا اللفظ على المكان الذي تحفظ فيه الدفاتر والسجلات. وقد كانت أعمال الدولة الأموية الإدارية تستند إلى أربعة دواوين وهي: الرسائل والخراج والإيرادات، وديوان الخاتم الذي تحفظ به أوامر الخليفة وهو أعظم الدواوين[2].

وقد ظلت الدواوين تعتمد على الأساليب الدخيلة، من رومية وفارسية، وأول من أمر بنقل الديوان إلى العربية عبد الملك بن مروان. فزاد هذا من تعزيز العرب وساعد على تطور لغتهم، وإقبال الأعاجم على إتقانها والبراعة فيها.

وكان الخليفة الأموي يُعيِّن الولاة على الأمصار. وقد بلغ عدد الولايات في ذاك العصر خمساً تنتظم رقعة الدولة من الهند إلى

= ٣/ ٢٩٠ والوزراء والكتاب ٧٢ ـ ٨٣.

(١) انظر كتاب مواقف في الأدب الأموي د. عمر فاروق الطباع صفحة (٢٧) دار القلم بيروت ١٩٩١.

(٢) وهذا الديوان استحدثه معاوية.

المحيط الأطلسي والأندلس[1] . ونظراً لاتساع الدولة عما كانت عليه في صدر الإسلام، فقد أدخل معاوية نظام البريد مقتبساً إيَّاه عن الفرس والروم لربط مركز الحكم بسائر الأقاليم والأنحاء، وقد أصاب هذا النظام الكثير من التقدم في خلافة عبد الملك الذي كان لا يمتنع عن حامل البريد في الليل أو النهار. وكما شهد العصر الأموي العناية بالأنظمة السياسية والإدارية، فقد عرف أيضاً الاهتمام بالأنظمة المالية، والحربية والقضائية[2] .

الحياة الاجتماعية:

تغيرت الحياة الاجتماعية في عصر بني أمية عما كانت عليه في صدر الإسلام. فبدأت تبعد عن البداوة وتأخذ بأسباب جمة من التحضر بفضل اتساع الفتوحات واتصال العرب بسكان الأقاليم المفتتحة، ودخول غير العناصر العربية في الإسلام. وقد كان للامتزاج بين هذه العناصر أثره الواضح في ازدهار الاقتصاد والعمران والسياسة التي اتبعها الخلفاء الأمويون في تسيير دفة الحكم، أبرز

---

(١) بلغت الدولة الإسلامية أوسع حدودها في زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد. وباتت تشمل بالإضافة إلى أقاليم الحجاز ومصر والعراق والشام، بلاد ما وراء النهر فوصلت شرقاً إلى حدود الصين وضمت بلاد السند وبعض بلاد البنجاب. واجتاحت شمالاً أرمينيا وأذربيجان مقتحمة الأناضول حتى القسطنطينية. أما في الغرب فقد افتتح العرب شمالي إفريقيا إلى المحيط الأطلسي واجتازوا البحر إلى إسبانيا أو «فاندلوسيا» التي عرفت باسم الأندلس.

(٢) انظر بهذا الصدد كتاب الأحكام السلطانية للماوردي.

الآثار في تطوير الحياة الاجتماعية.

واختلفت مظاهر هذا التغيير بين قطر وقطر وبيئة وأخرى من القطر نفسه، فالقطر الحجازي الذي كان مهد الإسلام ومركز الخلافة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين لم يعد كذلك في عهد بني أمية، إذ انتقلت الخلافة إلى الشام وغلب على الحجازيين تياران: تيار اللهو والغناء، والتيار الديني.

ـ وقد وصف الجاحظ[1] دولة بني أمية فقال: «إنها عربية أعرابية» وهذا الوصف يصح من ناحيتين:

١ ـ كون العنصر العربي، هو العنصر السائد في هذا العصر. فقد خالف الأمويون تعاليم الإسلام. وميزوا بين العرب والأعاجم، فخصوا العنصر العربي بالمرتبة الأولى في هذا المجتمع وعوّلوا عليه في تنفيذ سياستهم، وإدارة شؤون دولتهم، مع أن تعاليم الدين تدعو إلى المساواة وتعتبر التقوى أساساً في كلّ مفاضلة كما في قوله تعالى: ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2].

٢ ـ اتبع الأمويون سياسة التفريق بين العرب تلك السياسة التي كان لها اليد الطولى فيّ إحياء العصبية القبلية من جديد. وخاصة في العراق. فانبرى الشعراء في هذا القطر يعيدون تراث الجاهلية على

---

(١) هو عمرو بن محبوب أبو عثمان الجاحظ (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ) رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. له تصانيف كثيرة منها «الحيوان» و «البيان والتبيين» و «البخلاء». انظر الأعلام ٥/ ٧٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

صفحة الشعر بمفاخر قبائلهم ومآثرهم من ناحية، ومثالب خصومهم من ناحية ثانية، وباتت سوق المربد في البصرة والكناسة في الكوفة منبراً للعصبيات المتنافرة، التي أذكت نار الحمية البدوية من جديد.

هذان مظهران يؤكدان ما ذهب إليه الجاحظ ويكشفان عن الطابع العربي في الدولة الأموية. غير أن هذا الطابع يكاد يقتصر على الجانبين السياسي والأدبي في هذا المجتمع أكثر مما يمثّل العامّة، لأن الاتصال بسكان الأقاليم المفتتحة ودخول العناصر غير العربية في الإسلام والامتزاج بين هذه العناصر بفعل التجاور والاختلاط والتزاوج والمصاهرة.

فحقيقة المجتمع الأموي إذاً كونه مجتمعاً عربياً في صميمه وطبيعته، ولكنه مجتمع عربي آخذ بنصيب وافر من مراحل التمدن وأزياء الحياة المدنية، باستثناء البيئة الاجتماعية في بطاح نجد وبواديها.

فالحياة في مدن الحجاز وخاصة في مكة والمدينة، كانت على جانب ملحوظ من الإغراق في معطيات الثراء العريض، والغنى الموفور. انجرف له قسم كبير من سكان مكة والمدينة التي شاءت سياسة بني أمية أن تصرفهم عن الحكم، وأن تحوّلهم شطر الرفاه في العيش. فهي حياة رخية ناعمة تجد مسرحها في محافل الغناء، وندوات اللهو والطرب. فأغدقت عليهم النعم وجعلت الأموال تنصب على مدنهم من التجارة والغنائم والفيء والمعاشات الضخمة التي وظّفتها لشباب قريش بعد أن فرضت عليهم الإقامة الجبرية في الحجاز لا يبرحونه إلا بإذن الحاكم أو الخليفة. فتبسط الحجازيون على النعيم، وعكفوا على متارف العيش يغترفون منها ما بوسعهم، ويتملون

من ملذات العمر. يعضدهم في ذلك ظرف في طبائعهم، ووداعة في نفوسهم، ورقة في مشاعرهم، وفصاحة ولسن وميل إلى الطرب واللهو والعيش المنعم.

وبفضل هذه الحياة ازدهرت مجالس الغناء وأصبح الحجاز متجعاً للمغنين والمغنيات كابن سريج[١]، والغريض[٢]، ومعبد[٣]وحبَّابة[٤]،

---

(١) هو عبيد الله بن سريج من أشهر المغنين وأصحاب هذه الصناعة في صدر الإسلام (٢٠ ـ ٩٨ هـ) كان يغني مرتجلا فيأتي باللحن المبتكر وهو من أهل مكة وأول من ضرب بها على العود بالغناء العربي، انظر الأعلام ٤/ ١٩٤، الأغاني ١/ ٢٤٨، وورد اسمه في نسخها مختلفاً عبيد الله، وعبيد، وعبد الله.

(٢) هو عبد الملك مولى العبلات من مولدي البربر: من أشهر المغنين ومن أحذقهم في صناعة الغناء سكن مكة وغنّى سكينة بنت الحسين. وكان يضرب بالعود وينقر بالدف، ويوقع بالقضيب. كنيته أبو يزيد أو أبو مروان. ولقب «الغريض» لجماله ونضارة وجهه. توفي نحو (٩٥ هـ). انظر الأعلام ٤/ ١٥٦، الأغاني ٢/ ٣٥٩.

(٣) هو معبد بن وهب أبو عباد المدني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي. نشأ في المدينة يرعى الغنم وربما اشتغل في التجارة. ولما ظهر نبوغه في الغناء أقبل عليه كبراء المدينة. ثم رحل إلى الشام فاتصل بأمرائها وارتفع شأنه. وكان أديباً فصيحاً، وعاش طويلا إلى أن انقطع صوته. ومات في عسكر الوليد بن يزيد سنة (١٢٦ هـ). انظر الأعلام ٧/ ٢٦٤، والأغاني ١/ ٣٦.

(٤) هي حبابة: جارية يزيد بن عبد الملك مغنية، من ألحن من رئي في عصرها، ومن أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأفضلهم أدباً. قرأت القرآن وروت الشعر وتعلمت العربية. وهي مولدة كانت لرجل من أهل المدينة يعرف بابن رمانة خرّجها وأدبها. فأخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز وطبقتهما، فاشتراها يزيد بن عبد الملك بأربعة آلاف دينار، فغلبت على عقله وشغل =

وسلامة[1]، وطويس[2]، وقد كان لهؤلاء وأولئك أثر قوي في ازدهار الغناء وتحضُّر الشعر الغنائي في هذا العصر. وقد حفل كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني[3] بذكر المغنّين والمغنيات وإقبال الناس على مجالسهم.

وهكذا وجد المجتمع الحجازي في هذه الأجواء الغنائية منصرفاً له عن إخفاقه السياسي، فأذاب همومه في السَّماع ونال من خلجات الأوتار، وغناء الحناجر، ما خفف به أجيج السخط ولظى النقمة على السلطان الأموي. وقد أدى مجتمع المجون واللهو هذا إلى تطور في الحياة الاجتماعية وفي الأخلاق وسبل العيش والأنظمة والمآكل والمشارب والملابس والمساكن. فما عاد الحجازيون ذوي خشونة

= بها. ثم ماتت سنة (١٠٥ هـ) فحزن عليها ومات بعدها بأربعين يوماً. انظر الأعلام ٢/ ١٦٣، أعلام النساء ١/ ١٩٥.

(١) هي سلاّمة القس مغنية شاعرة من مولدات المدينة، أخذت الغناء عن معبد وطبقته شغف بها عبد الرحمٰن بن أبي عمار الجشمي (من قراء مكة) الملقب بالقس لكثرة عبادته فنسبت إليه توفيت (نحو ١٣٠ هـ) الأعلام ٣/ ١٠٧.

(٢) هو عيسى بن عبد الله أبو عبد المنعم مولى بني مخزوم أول من غنّى بالمدينة غناء يدخل في الإيقاع. ولد في المدينة (١١ هـ) وتوفي في السويداء (٩٢ هـ) وفيه ضرب المثل (أشأم من طويس) لما يقال من أنه ولد يوم وفاة النبي ﷺ. وفطم يوم مات أبو بكر وختن يوم قتل عمر وتزوج يوم قتل عثمان وولد له يوم قتل علي. انظر الأعلام ٥/ ١٠٥، وفيات الأعيان ١/ ٤٠٠.

(٣) هو علي بن الحسين بن محمد أبو الفرج الأصبهاني من أئمة الأدب (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ). عارف في التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي، ولد في أصبهان. ونشأ وتوفي في بغداد له (الأغاني) جمعه في خمسين سنة لم يعمل في بابه مثله. الأعلام ٤/ ٢٧٨، يتيمة الدهر ٢/ ٢٧٨. تاريخ بغداد ١١/ ٣٩٨.

ولا أهل شظف، وإنما رقَّ عيشهم، وسكنوا القصور، وأقبلوا على الدنيا وتعلقوا بجانب من حضارة الأمم المغلوبة وأساليب حياتهم واقتنوا الجواري الروميات والفارسيات والهنديات، وشاع بينهم العبث وشرب الخمر.

وإلى جانب تيار اللهو والغناء الذي غلب على حواضر الحجاز، قام جماعة من المتدينين هم بقية الصحابة وتابعوهم. وكانت مكة قبلة المسلمين ومزار حجّهم، والمدينة مدفن النبي ﷺ والصحابة مقصداً لوفود طالبي العلوم الدينية. فأحدث ذلك حركة دينية تجلّت في ثلاث نواح:

- أولاها: دراسة القرآن وتفهمه وتفسيره.
- والثانية: رواية الحديث وغربلته والتثبت من صحته وجمعه.
- والثالثة: استنباط الأحكام من القرآن والحديث والسنَّة لتطبيقها على جميع الناس في كل ما يصدر عنهم من أعمال وأقوال دينية أو دنيوية وهذا ما سمِّي بالتشريع.

وهكذا نشطت العلوم الدينية في الحجاز فكان من نتيجتها ظهور أول مذهب من مذاهب الفقه هو المذهب المالكي لصاحبه مالك بن أنس[1] وأول كتاب في هذا الموضوع هو كتاب الموطأ لمالك نفسه.

---

(١) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبد الله إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية مولده ووفاته في المدينة (٩٣ ـ ١٧٩ هـ). أصله من أمراء حمير له: «الموطأ» الذي هو أساس المذهب «الرد على القدرية»، «الرسالة إلى الرشيد»، «المدونة الكبرى».

ولم يكن جميع أهل الحجاز يحييون حياة الترف في عصر بني أمية وإنما كان منهم معدمون، لم تبلغهم غنائم الفتوح، ولا أرباح التجارة ولا أعطيات بني أمية. ونخص بالذكر سكان البوادي، والضاربين في بطاح نجد. هؤلاء ظلّوا على بداوتهم يعيشون مما تدره عليهم مواشيهم ويتنقلون بخيامهم في سبيل انتجاع الماء والمرعى. عاداتهم ظلت أقرب إلى عادات الجاهلية من حيث محافظتهم على الشرف، ومنعة العرض. لكنَّ الصراع القَبلي بينهم قد خف وضعف. وما عاد لهم مثل أعلى أو شيء يفخرون به في الحياة كما كانوا يفخرون في أيام الجاهلية. بعد واقعة مرج راهط التي دارت رحاها بين القيسية من جهة والتي كانت ضد الأمويين وتغلب وبكر من جهة ثانية وكانت الغلبة فيها لتغلب.

أما مجتمع الشام، فقد أَلَّف بين أهل الذمة ونزلته غالبية عظمى من القبائل اليمنية التي التأمت حول البيت الأموي وناصرته ضد خصومه والثائرين عليه فتمتع هذا القطر بكثير من هبات الحاكمين وفاز بأسباب الرعاية والاستقرار لبعده عن مواطن الفتن والثورات في العراق وخراسان.

وقد كانت الشام مركزاً حضارياً قديماً، وحين افتتحها الرومان في القرن الأول قبل الميلاد قاموا بترتيب الإدارة والتنظيم فيها واهتموا بتجميل أبنيتها وخاصة أنطاكية ودمشق وتدمر، وبتوسيع نطاق تجارتها وصناعتها فحوّلوا كثيراً من البقاع إلى جنات ومزارع. وقد أصبحت صادراتها الزراعية من حبوب وخمور وزيوت وفواكه، ومنتجاتها الصناعية من نسيج القطن والحرير والكتان وآنية النحاس والزجاج تنقل إلى كافة المعمورة.

وقد ضمت بيئة الشام المشتغلين بالجدل الفلسفي والنقاش الكلامي والأدباء الوافدين على البلاط طمعاً بالجوائز والأموال. ومع هذا المجتمع الذي كان مركز النشاط الإداري والسياسي، ومنه تنطلق أوامر الخلفاء إلى العمّال والولاة في أرجاء الدولة الواسعة، فقد وجد سبيله إلى حياة الرخاء. ولم تحرم الخاصة فيه من حياة الترف ووسائل الترفيه. وكان من الطبيعي أن تنتقل دنيا الغناء إلى قصور الخلفاء والأمراء التي عنيت بمجالس الطرب وحفلت بضروب من الفن الغنائي وتنافس الأمراء في اقتناء الجواري والمغنيات. فقد هام يزيد بن عبد الملك «بحبابة» وفتن بها كما شغف بصاحبتها «سلّامة» وراجت تجارة القيان. ومما ساعد على توفير هذا الجو حالة الاستقرار النسبي التي سيطرت على الشام آنذاك فقد كان بين الأمويين وبلاد الشام علاقات طيبة منذ أن كان معاوية والياً عليها، ولذلك لم تنشب فيها ثورات، ولا تشدد الأمويون على أهلها، فانتظمت أمورها وانصرف أهلها إلى نشاطاتهم الاجتماعية من تجارة وصناعة وعمران وزراعة.

أما مجتمع العراق فكانت الحياة فيه ملأى بالاضطراب والثورات طيلة العهد الأموي، وقد تميز عن المُجتمع السابق بحياة الجدّ إذ كان مركزاً لحزبين من الأحزاب المعارضة هما الشيعة والخوارج. ويعيش في ربوعه جماعات متباينة الأهواء والنزعات، لذلك ساد المجتمع العراقي الصراع السياسي، ولم يفز كالأقليمين السابقين بقدر كبير من الحياة اللاهية، ولم تغزه أفانين الغناء التي عمَّت بيئة الحجاز المتحضرة. وقد اصطبغت الحياة الأدبية في هذا القطر بواقع هذه الحياة الاجتماعية فكانت الخطابة الحزبية والشعر السياسي ميداناً

لقرائح البلغاء ومذاهب الأفذاذ من الشعراء. . .

ومن خلال هذه الصور المجملة للحياة الاجتماعية في ثلاثة أقاليم من الدولة الأموية يتضح أن سكان هذا المجتمع كانوا طبقات عدة:

١ ـ طبقة الخاصة من الأسر القرشية صاحبة الرئاسة وحاملة لواء الحكم والسيادة وهي الطبقة التي جمعت عزّة الغلبة إلى شرف المكانة والثورة، فهيمنت على شؤون الإدارة والسياسة ونعمت بخفض العيش وتاهت بما للنبلاء من شرف فكانت أعلى طبقات هذا المجتمع وأرفعها منزلة وأعلاها حكمة.

٢ ـ طبقة أهل الذمة من نصارى ويهود وقد أعطتهم الدولة عهداً بحماية أرواحهم وممتلكاتهم لقاء جزية يدفعونها.

٣ ـ طبقة الموالي وهم المسلمون من غير العرب وكانوا في الأصل أسرى حرب بمنزلة الرقيق، ثم أسلموا فعتقوا فأصبحوا الموالي. ولاقى الموالي الكثير من الاحتقار في عهد بني أمية حتى كان يقال: «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: كلب أو حمار أو مولى». وكانت حالتهم الاجتماعية من حيث الحقوق والواجبات أحط من طبقة العرب[١]. ولكن ذلك لم يمنع وصول جماعة منهم إلى الوظائف العامة، ولئن

---

(١) كانوا يساقون إلى الحرب مشاة، ولا يحق لهم الزواج من عربية ولا ينالون نصيباً كاملاً من الرزق والعطاء. انظر الحضارة العربية الإسلامية لعلي الخربوطلي، صفحة (١٢٤).

لم يصل الموالي إلى منزلة العرب في فنون الأدب فقد كان لهم من تراث أممهم الغابر وثقافاتهم الأصيلة ما ساعدهم على النبوغ في الكتابة والعلوم.

٤ - طبقة الرقيق والرقيق لغة: حرمان الفرد من حريته الطبيعية بحيث يصبح ملكاً للغير. وكان العرب يسترقُّون حاميات المدن التي تقاومهم مقاومة عنيفة. ثم زاد عدد الرقيق إثر الفتوحات الإسلامية أيام الوليد بن عبد الملك وخلفائه، وأصبـــح هناك أسواق للنخاسة، حتى صار لبعض العرب عشرات بل مئات من العبيد.

والرقيق نوعان خصيان: وهم يستعملون للخدمة في دور النساء خاصة، ويقال إن معاوية هو أول من اتخذ الخصيان لخدمته؛ والجواري: ويستعملن للرقص والغناء والخدمة في القصور.

ولئن كانت السيادة في المجتمع الأموي للعرب دون غيرهم من الأمم والشعوب، ولئن اتسمت بعض جوانب هذا المجتمع بروح البداوة، فلا شك أن طوابع الحياة العامة، نتيجة التفاعل بين فئات هذا المجتمع لم تبق مشدودة إلى الماضي، ولم تعد تستمد نماذجها من التقاليد الجاهلية. فقد اقتبس أمراء الدولة من أنظمة الروم التي كانت معروفة في حواضر الشام وظيفة «الحجابة» وابتناء القصور الأنيقة، والدارات الفخمة، وألوان الأطعمة، فتغيرت عادات العرب في المآدب وحفلت موائدهم بأصناف المآكل الجديدة. ومثل ذلك في اللباس وسائر التقاليد الاجتماعية، وكَلِفَ كبار القوم بالصيد فنام عن شغف زاد من العناية حتى بكلاب القنص ولباسها، فقد ألبسوها

الأنسجة وجعلوا أساور الذهب في أعناقها وخصّصت العبيد لخدمتها والسّهر عليها.

هذا قليل من كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر الأموي ولننتقل الآن إلى الحياة العقلية.

الحياة العقلية:

يقتضي الكلام على الحياة العقلية في العصر الأموي تعداد العناصر التي شاركت في هذه الحياة وعملت على تكوينها، فقد بدأ في هذا العصر تكوّن العلوم التي نمت ونضجت في العصر العباسي. فنشأت العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية، أما الشرعية فأهمها:

- قراءة القرآن: فقد اختلف الناس بعد موت النبي ﷺ في قراءة بعض الآيات، مما دعا إلى تنظيم هذه القراءات على أسس دقيقة.
- التفسير: عمد الصحابة إلى ضبط التفسير بعد أن كانوا يتناقلونه شفهياً طيلة القرن الأول للهجرة.
- الحديث: ويأتي الحديث بعد القرآن في الأهمية.
- الفقه: احتاج الخلفاء إلى نظم وشرائع يقضون بها بين رعاياهم فرجعوا إلى القرآن والحديث يستخرجون منهما القوانين التي يطبقونها في تنظيم حكومتهم وفي ضبط شؤون الناس بأحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية.

وأما العلوم اللسانية فهي التي ترجع إلى ضبط اللغة العربية

كالنحو والصرف والحركات والأعجام. فإن اختلاط الأعاجم بالعرب أدّى إلى فساد اللغة قراءةً وكتابةً، مما حمل جماعة من العرب عرفوا قواعد اللغتين السريانية واليونانية، على وضع قواعد اللغة العربية فكان أبو الأسود الدؤلي أوّل من انشأ علم النحو عند العرب (نحو ٦٩ هـ).

وقد استفاد العرب في وضع علومهم الشرعية واللسانية وتطويرها من العلوم الدخيلة التي عرفوها عند السريان والفرس والهنود واليونان والتي بدأوا بنقلها إلى العربية. ولكن هذا النقل ظل محدوداً في العصر الأموي.

وبعد دراسة العناصر التي شاركت في صنع الحياة العقلية في العصر الأموي يمكن القول بأن من ساعد على تطور هذه الحياة يعود إلى أمور ثلاث:

١ ـ الفكر العربي الأصيل الذي يتجلّى في آداب الجاهلية، لغةً وشعراً وخطابةً وقصصاً وأمثالاً.

٢ ـ الفكر الإسلامي الذي هو من ثمار العقيدة الإسلامية، وقد شمل القرآن والحديث والتفسير والفقه، وعلم القراءات، وما نشأ من العلوم اللسانية كاللغة والنحو والبيان وعلم الحركات والأعجام، والتي كانت في البدء أداة لفهم أغراض الدين وتعاليمه.

٣ ـ الفكر الدخيل وهو هذه العلوم العقلية التي كانت معروفة في الأمصار المفتتحة والتي أخذت تغزو الفكر العربي، سواء عن طريق المجاورة والاختلاط، أو بسبب حركة النقل

والترجمة، وفي مقدمتها: الطب والكيمياء والفلك.

وكان للنشاط العقلي مراكزه أولها العراق: **الكوفة والبصرة**: حيث لم يكن في الأول الهجري مدينة تستطيع منافستهما، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه، وفيهما نشأت مذاهب النحويين واللغويين. وفي البصرة قامت مجالس تناقش فيها المسائل السياسية والدينية[1]. كما قام سوق المربد حيث يجتمع الشعراء والخطباء، يتناشدون ويتناقشون، والمربد في العصر الأموي كسوق عكاظ في الجاهلية.

أما مدن الحجاز كالمدينة المنورة ومكة فقد كانت مراكز لعلوم الحديث والتفسير بالنظر لوجود الصحابة والتابعين فيها.

وقيل: لا يمكن أن نغفل أثر الثقافات الدينية وفلسفاتها التي سبقت ثقافة الإسلام والتي ساعدت في تطوير الحياة العقلية الإسلامية، ونشأة الجدل الديني الفلسفي الذي بدأ يتكوّن في ظل الدولة الأموية والذي عمّقت جذوره وامتدت أصوله وتفرّعت في عهد الدولة العباسية.

---

(١) «مسألة القضاء والقدر... ومسألة ذات الله وصفاته».

الحياة الأدبية:

أثرت البيئة الأموية في الأدب من جميع النواحي، وانعكس هذا التأثير على الأدب، فقد راج الشعر بعد أن كان خافت الصوت في أيام النبي ﷺ والراشدين، ووثب وثبات كبرى حتى شغل جمهور الناس به من الخلفاء إلى الولاة والقواد، إلى الأئمة والفقهاء ورجال الدين، إلى مختلف طبقات الشعب رجالاً ونساءً. فخالف في ذلك ما كان عليه بدء الدعوة الإسلامية، وعادت إلى الشاعر مكانته وتناشد الناس قصائده وسارت بها الركبان، فإذا أشعار عمر بن أبي ربيعة[1]، والأخطل والفرزدق وجرير وسواهم تحظى بسيرورة كبرى وتطير على ألسنة الناس غناءً وامتداحاً ومفاخرة وتغزلاً وهجاءً.

وكان من أسباب ازدهار الشعر في العصر الأموي قيام الأحزاب السياسية والتناحر الذي حصل بينهما مما أثار العصبية العربية وقد أدّى هذا إلى فورة الشعر السياسي، وانتشار الغناء وحياة اللهو والترف من أسباب ازدهار الشعر أيضاً. وأدّى الغناء إلى ازدهار شعر الغزل.

وخطا النثر خطوات واسعة نحو التقدم، بفضل القرآن والأحداث السياسية من جهة، وبفضل الدواوين وتطور الحياة العامة وتمازج

---

(١) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أبو الخطاب أرق شعراء عصره (٢٣ ـ ٩٣ هـ) لم يكن في قريش أشعر منه نفاه عمر بن عبد العزيز إلى (دهلك) ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه فمات فيها غرقاً. له «ديوان شعر».

الشعوب من جهة أخرى.

هذا التقدم ظهرت ملامحه في الخطابة إذ بلغت في عهد بني أمية قمة ازدهارها وطبعت سائر الفنون بطابعها. حتى أن الشعر تحوَّل قسم منه نحوها، فكان هنالك شعر خطابي يلقيه أصحابه بين أيدي الخلفاء والأمراء. ولعل المنازعات السياسية هي التي ساعدت أكثر من سواها على تقدم الخطابة وازدهار الشعر السياسي لكون اللسان كان أفعل من السيف وأمضى منه في الخصومة والصراع.

أما الفن النثري الذي عرف ازدهاراً في العهد الأموي، ففنّ الرسائل وذلك بعد أن أُنشيء للرسائل ديوان خاص، واختير له الفصحاء والبلغاء وأصحاب الثقافة والذكاء والحنكة الإدارية، فقد أخذ كتَّاب الرسائل يفتنّون في تدبيجها، ويسعون إلى جعلها مؤثرة بحسن أسلوبها. وفي ديوان الرسائل خطَّ مستقبل النثر العربي الغني على يدي سالم مولى هشام، وعبد الحميد الكاتب، وابن المقفع[1]، الذي أدرك العباسي ومات في أيام المنصور...

وأما الفن القصصي فقد ازدهر بفعل الدين وحاجة الناس إلى تفسير القرآن والتبسط فيما أوجده من قصص. وكان المسجد مسرح

---

(١) هو عبد الله بن المقفع (١٠٦ ـ ١٤٢ هـ) من أئمة الكتاب وأول من عني بترجمة كتب المنطق في الإسلام أصله من الفرس ولد في العراق مجوسياً (مزدكياً) وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) ترجم عن الفارسية كتاب «كليلة ودمنة» وهو من أشهر كتبه. اتهم بالزندقة فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي. الأعلام ٤/ ١٤٠، امراء البيان ٩٩ ـ ١٥٨، معجم المطبوعات ٢٤٩.

القصص الدينية ومقرَّ الإخباريين والقصّاصين والنسّابين، ولعل أشهر من عني بالقصص الدينية تميم الداري[1] . وإذا أضفنا إلى هذه الفنون ما رأيناه من حركة فكرية وعلوم، أمكننا الاستنتاج أن النهضة الأدبية والفكرية لم تنشأ في العصر العباسي كما يزعم كثير من الدارسين، بل الصحيح أن نشأتها واتجاهاتها، قد انطلقت من عصر بني أمية ثم اكتملت وتوسعت في أيام بني العباس حتى بلغت عهدها الذهبي.

وفي العصر الأموي نستدلّ على مدى تطور اللغة وعلومها واتساع مدلولها وكثرة ما استحدث فيها من مصطلحات، بمقتضى التطوّر الذي أصاب مجتمع الناس في سياسته وشؤونه الإدارية والمالية والفكرية ومعطياته الثقافية والعقلية، مما لا نقع عليه في معجم الألفاظ الجاهلية.

وكان لاختلاط العرب بغيرهم من الأمم أثر في هذا التطور الذي أصاب لغتهم، كذلك كان له خطر على فصاحة اللسان العربي، وقد تدارك العرب هذا الخطر بالإسراع إلى وضع علم النحو. يقول جرجي زيدان: «أمّا استعجال العرب في تدوين النحو فإنه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين، لأن الفتوح دعت إلى الاختلاط بالأعاجم والاختلاط دعا إلى فساد اللغة»[2] .

---

(١) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري أبو رقية (توفي نحو ٤٠ هـ). صحابي أسلم سنة (٩ هـ) سكن المدينة ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان. مات في فلسطين. انظر تهذيب ابن عساكر ٣/ ٣٤٤، صفة الصفوة ١/ ٣١٠، الأعلام ٢/ ٨٧.

(٢) راجع بهذا الصدد تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/ ٢٦١ وما بعدها.

مر بنا أن العصر الأموي كان عصر نهضة أدبية كبرى تجلّت في كلٍ من الشعر والنثر والخطابة، وقد زاد في اتساعها عوامل كثيرة أهمها:

١ ـ سياسة الدولة الأموية، فقد كان لهذه السياسة أثر مباشر في الشعر السياسي والخطابة والتدوين، وفي المديح والرثاء والهجاء والغزل.

٢ ـ صراع الأحزاب الذي أدّى إلى حرب كلامية شعراً وخطابةً، وامتداحاً وهجاء وإثارة وتحريضاً ودفاعاً ومجادلة.

٣ ـ امتداد رقعة الإمبراطورية فقد أدّى هذا إلى تمازج في الشعوب واختلاط الأجناس والعادات والتقاليد والأزياء واللغات. فكان لذلك أثره في الحياة الاجتماعية التي انعكست في الأدب، وأثره في الحياة الفكرية وفي اللغة التي فرضت على جميع الشعوب التي فتح العرب بلادها أن تتكلم بها، وأن تجعلها لغة العلم والأدب والدين والكتابة وغير خفي ما لذلك من انعكاس على الأدب.

٤ ـ تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الذي أسهم في تطوير الشعر الغزلي والوصفي، الوجداني، الخمري والمجوني.

٥ ـ الحياة الدينية التي أثرت من وجهين: وجه الاهتمام ووجه الاستخفاف، فالاهتمام الجدي بالدين ساعد على اتساع الدارسات الدينية وتعمقها من تفسير القرآن إلى علم القراءات إلى الفقه إلى الجدل وعلم الكلام، إلى رواية الحديث

وتفسيره إلى القصص والوعظ والإرشاد والخطابة الدينية والمناظرات.

وأما الاستخفاف بشعائر الدين وأصوله فقد أدى بالتالي إلى تفشي المجون واللهو والعبث وشرب الخمور، وارتكاب الموبقات وطلب اللذائذ المحرّمة، والتغني بها على نحو ما نجد في شعر الوليد بن يزيد والفرزدق وابن الرقيات والغزل الحضري إجمالاً والعمري بنوع خاص.

٦ ـ تطور الدولة وتنظيمها اللذان أديا إلى إنشاء الدواوين وتعريبها وتطور فنّ الرسائل والكتابة الفنية إجمالاً، وضبط سجلات الدولة، وما إلى ذلك.

٧ ـ يقظة العصبيات التي أذكت شعر السياسة القبلية والهجاء والنقائض.

٨ ـ عناية الخلفاء بالأدب واللغة، وعقدهم المجالس للسّمر والتندر والشعر والتسلية. فقد كانت مجالس الخلفاء الأمويين تعجُّ برواة الشعر، والمحدثين، والنسّابين، واللغويين والشعراء والخطباء من أهل الفصاحة واللسن وزاد في ذلك أهمية كون الخلفاء أنفسهم من كبار الملمّين بالأدب واللغة ومحاسن الكلام، يحرصون كل الحرص على ألا تخلو مجالسهم من حوار ونقاش وتنافس، مما دفع بأرباب الكلام إلى تجويده والعناية به، وبالرواة إلى التنافس في كثرة المحفوظ وجودته، وحسن عرضه.

وكان عبد الملك بن مروان سيد تلك المجالس بلا منازع، فهو سياسي بارع، ورجل دولة من الطراز الأول وهو عالم بالدين

والشريعة والأحكام، شاعر أديب فصيح بليغ خطيب مفوّه، حافظ للأشعار والأخبار والحديث والتاريخ، فمن أية جهة نظرت إليه وجدته بارعاً متفوقاً.

وقد ساعد الهدوء النسبي في عهده واستقرار أمور الدولة على ازدهار المجالس الأدبية فكان لذلك كله كبير الأثر في الأدب شعراً ونثراً وخطابةً وكتابةً.

الفصل الثاني

مدخل نحو الشعر الأموي وخصائصه:

استعاد الشعر في زمن بني أمية مكانته العالية التي كانت له في الجاهلية، وأخذ الناس يلهجون بالشعراء ويروون شعرهم ويفاضلون بينهم وظل بيت الشعر في عهد الدولة الأموية يرفع قوماً ويخفض قوماً؛ وقد أدرك الخلفاء والولاة أهمية الشعر فقرّبوا أصحابه، وأفاضوا عليهم جزيل الأعطيات.

وشعر الأمويين لا يختلف في شيء كثير عن شعر الجاهلية، وإنما هو امتداد له، مع كونه أكثر أهمية وخطورة. والسبب في ذلك يعود إلى أن الخلفاء الأمويين كانوا من العرب يعجبون بأساليب القدماء، وأن الذوق العام كان ما يزال عربياً ميّالاً إلى ما أَلِفه من الأساليب القديمة.

وهكذا ظلّ الشعر جزل العبارة، قوي الأسلوب، فصيح التركيب

بعيداً عن اللحن، محافظاً على نظام القصيدة العربية التي تتناول عدة أغراض لا غرضاً واحداً وتلتزم وزناً واحداً وقافية واحدة باستثناء الغزل الذي عرف وحدة القصيدة وتطور أكثر من سواه معنى ومبنى ورقّت ألفاظه، وطغت عليه الرشاقة في الأوزان وأسلوب الحكاية والقصص.

وفي حقل المعاني لم يتطور الشعر الأموي كثيراً، رغم ما أشاعه الإسلام في تفكير الناس وأخلاقهم، لأن الفترة الزمنية لم تكن كافية لتطوير العقلية العربية من حيث الشعر والألفاظ وتعميق الثقافة، وتوسيع أفقها.

ولا يحدث تطور في المعاني ذو قيمة إلا إذا تطورت الحياة العقلية، التي تحتاج في خطواتها هذه إلى مدة أطول مما امتد العصر الأموي. وقد حدث هذا التطور في العصر العباسي الأول، واستمر. لكننا مع ذلك نشاهد في شعر الأمويين اتجاهاً نحو هذا التطور، ولا سيما في أواخر العهد الأموي إلاّ أنه بقي محدوداً لكون الشعراء والبيئة وسائر العوامل أقرب إلى البداوة منها إلى الحضرية.

في هذا المجال نقع على تطور وعلى تغيُّر في الخصائص، ولعل أبرز مظاهر التجديد في الشعر الأموي تتجلّى في ازدهار بعض الفنون، والإكثار من النظم فيها كالشعر السياسي والغزلي وشعر المديح والفخر والهجاء؛ وفي ضعف فنون أخرى والإقلال من الاحتفال بها كالوصف والرثاء والحكمة.

والواقع أن العصر الأموي كان عصر الازدهار الشعري للعديد من الأسباب نذكر منها:

ـ قيام الأحزاب وحاجة كل منها إلى الشعر، لإثارة العواطف وتحريك المشاعر ونشر المبادىء والعقائد التي تدين بها الأحزاب.

وكان الحزب الأموي أكثر الأحزاب حاجة إلى الشعر ورغبة في استهواء الشعراء وكان من لوازم سياسته ما أورده جرجي زيدان بقوله: «تألّف الشعراء بالمال فضلاً عن اضطرار الشعراء وغيرهم إلى استرضائهم خوفاً من قطع العطاء عنهم»[١] وكان معاوية صاحب هذه السياسية: «فقد جعل تصرفه في العطاء وسيلة لاكتساب قلوب المسلمين حتى أشياع العلويين وغيرهم من أبناء الصحابة الذين كان يخاف قيامهم للمطالبة بالملك»[٢].

ـ ومن هذه الأسباب عودة العصبية القبلية، وكانت عودتها من نتائج السياسة الأموية منذ عهد الخلاف الأول بين علي ومعاوية. وقد تفاقم شأن هذه العصبية حين انقسم البيت الأموي إلى فرعين: مرواني وسفياني. كل هذا اقتضى الشعر وأدّى إلى نفوذ الشعراء في الأحياء وعند سائر الزعماء من خلفاء وأمراء وولاة.

ـ وقد كان بنو أمية من ذوي الحفاظ على تراث العرب الأدبي وفي مقدمته الشعر. وقد كان أكثرهم مشهوراً بحفظ أشعار العرب والعناية بالنظم. وكان معاوية يقول: «اجعلوا الشعر أكبر

---

(١) انظر كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/ ٢٦٣.
(٢) نفس المصدر السابق ١/ ٢٦٣.

همّكم وأكثر دأبكم»[1]. وفي الأغاني: «أن عبد الملك راسل عبد الله بن الزبير شعراً، وردَّ عليه الأخير بمثل ذلك»[2]. ولم يقتصر بنو أمية على رعاية الشعراء فقد أحيوا مجالس الشعر، وأخبار الكتب الأدبية تدل على امتلاكهم ملكة النقد. وقد بلغ من شغف الخلفاء الأمويين بالشعر أن استقدموا الشعراء من الأمصار، وكانوا يبعثون إلى عمالهم باستعجالهم إليهم.

ـ وقد كان لنهضة فن الغناء في الحجاز على يد الرقيق والموالي أمثال معبد وسائب خاثر[3]، وابن مسجح[4]، وابن سريج وجميلة[5] وعزة الميلاء[6] وحبَّابة وسلاَّمة، ما أدخله هؤلاء

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/ ٢٧٧.

(٢) انظر الأغاني ١١/ ١٢١.

(٣) هو سائب بن يسار الليثي بالولاء أبو جعفر أحد أئمة الغناء والتلحين في العرب كان حسن الصوت، وهو أستاذ معبد المغني وابن سريج وعزة الميلاء وآخرين وقيل في سبب تسميته «سائب خاثر»: أنه غنّى صوتاً ثقيلاً فقال من سمعه: «هذا غناء خاثر». أي غير محذوق فلصق به لقباً. قتل في الحرة (سنة ٦٣ هـ). الأعلام ٣/ ٦٨ ونكت الهميان ١٥٣.

(٤) هو سعيد بن مسجح أبو عثمان أو أبو عيسى ملحن من كبار المغنين كان أسود من أهل مكة، جعل لنفسه مذهباً في التلحين تبعه فيه الناس من بعد، توفي سنة (٨٥ هـ) وكان من تلاميذه ابن سريج، والغريض. الأغاني ٣/ ٢٧٦ الأعلام ٣/ ١٠١.

(٥) هي جميلة السُّلمية موسيقية ملحنة كانت من أعلم المغنين والمغنيات في العرب، في صناعة الغناء، وضعت ألحاناً تهافت الناس على سماعها، كانت نابغة الغناء والتلحين في عصرها توفيت سنة (١٢٥ هـ) الأغاني ٧/ ١١٨، الأعلام ٢/ ١٣٩.

(٦) هي عزة الميلاء أقدم من غنّى غناءً موقعاً في الحجاز، إقامتها بالمدينة وهي =

من ألحان الروم والفرس، نتيجة ما أصاب أهل الحجاز من الغنى والثروة، وما نجم عن ذلك من ميل إلى حياة الدعة واللهو. وتناول الشعر الغنائي وخاصة ما لامس منه العواطف ومعاني الغزل.

- ومن دواعي هذه النهضة العارمة في الشعر الأموي اهتمام الرواة والنقاد به فأقبل الشعراء على قرائحهم يشحذونها ليكسبوا شعرهم الرواج فاشتدت روح المنافسة بينهم. وقد لعبت سوق المربد في البصرة والكناسة في الكوفة دوراً مهماً في هذه المنافسة وأذكت وطيس التسابق بينهم.

وفي نظر النقّاد[1] قد مرّ الشعر الأموي بثلاثة أدوار:

الأول: أقرب إلى روح البداوة وأكثره في الفصل بين خصومة العلويين والأمويين وشعراء هذا الدور جلّهم من خصوم بني أمية ومنهم من جاهر بخصومتهم فعلاً كالنعمان بن بشير[2] وابن مفرغ

= مولاة للأنصار، لقّبت بالميلاء لتمايلها في مشيتها، قال طويس: هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع وخلق كريم وإسلام لا يشوبه دنس، تأمر بالخير وهي من أهله، وتنهى عن السوء وهي مجانبة له. توفيت نحو (١١٥ هـ). انظر الأغاني ١/٣٧٨، أعلام النساء ٢/١٠١٣، الأعلام ٤/ ٢٣٠.

(١) انظر كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/ ٢٧٧.

(٢) هو النعمان بن بشير بن سعد أبو عبد الله (٢ - ٦٥ هـ) أمير خطيب شاعر من أجلّاء الصحابة من أهل المدينة له (١٢٤ حديثاً) ولي القضاء بدمشق وولي اليمن لمعاوية ثم استعمله على الكوفة تسعة أشهر، قتله خالد بن خلي الكلاعي وهو فاراً من حمص، له ديوان شعر وهو الذي تنسب إليه معرّة النعمان، جمهرة الأنساب ٣٤٥، أسد الغابة ٥/ ٢٢، معجم المطبوعات =

الحميري وأبو الأسود الدؤلي.

الثاني: وهو أشهر أطوار الشعر الأموي، ويسمى طور الفحول في عهد عبد الملك وخلفائه من بني مروان وفي مقدمة هؤلاء الفحول: الأخطل وجرير والفرزدق والراعي النميري[1] وأبو النجم الأحوص[2] والثلاثة الأول أكثرهم سيرورة شعر وتنوع أغراض وقد غلبت السياسة على أدب هذه الفترة ودارت الفنون العديدة من مثل المديح والهجاء والغزل في الفلك السياسي.

الثالث: قلَّ عدد الشعراء، وغلب على الشعر طابع الخلاعة والمجون وتعليل هذه الظاهرة اتساع الدولة الأموية وتزايد أسباب الرخاء وفتور حدة الصراع القبليّ، والهجاء السياسي.

أغراض الشعر الأموي:

خاض الشعراء الأمويون في الأغراض القديمة من فخر وحماسة

= ١٨٦١، الأعلام ٨/ ٣٦.

(١) هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري. أبو جندل شاعر من فحول المحدثين لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل، وقيل كان راعي إبل من أهل بادية البصرة عاصر جريراً والفرزدق، كان يفضل الفرزدق وهو من أصحاب الملحمات سمّاه بعض الرواة حصين بن معاوية. توفي سنة (٩٠ هـ)، انظر الأغاني ٢٠/ ١٦٨، جمهرة أشعار العرب (١٧٢)، الشعر والشعراء ١٥٦. الأعلام ٤/ ١٨٨.

(٢) هو عبد الله بن محمد بن عاصم الأنصاري من بني ضبيعة شاعر هجّاء صافي الديباجة، من سكان المدينة، نفي إلى (دهلك) توفي في دمشق سنة (١٠٥ هـ). وكان حماد الراوية يقدمه في النسيب على شعراء زمانه ولقب بالأحوص لضيق في مؤخر عينيه. له ديوان شعر واخباره كثيرة. الأغاني ٤/ ٤٠، الشعر والشعراء ١٢٤، الأعلام ٤/ ١١٦.

ووصف ورثاء ومديح وهجاء ولكنها أصابت على أيديهم، وخاصة عند الفحول منهم كثيراً من معالم التجديد والتحوّل.

وبفعل التحضر والسياسة وعوامل الثقافات ظهرت ألواناً تحمل آفاقاً أوسع من آفاق الشعر الجاهلي: فمن الأغراض القديمة التي اتسعت مجاريها المديح والهجاء، ومن أعلامها الفحول الثلاثة، وقمم الشعر الشامخة في هذا العصر: الأخطل والفرزدق وجرير وقد تمخض الهجاء عند هؤلاء عن فن جديد هو فن النقائض.

أما عن الأغراض الجديدة فظهر الشعر السياسي: وأبرز أعلامه الأخطل، والكميت بن زيد الأسدي موضوع دراستنا، وعبيد الله بن قيس الرقيّات، وعمران بن حطّان، والطرماح بن حكيم. الغزل العذري: وهو صورة لحياة المحبين في بيئة البداوة الإسلامية وأشهر زعمائه: جميل بن معمر[1] وقيس المجنون[2]. الغزل الحضري:

---

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي أبو عمرو شاعر من عشّاق العرب افتتن ببثينة من فتيات قومه، وفي شعره من صدق وبساطة التعبير ما حبّبه إلى المغنّين، توفي في مصر سنة (٨٢ هـ) نحو (٧٠١ ر) الأغاني ٨/ ٩٠، الشعر والشعراء ١٦٦، الأعلام ٢/ ١٣٨.

(٢) هو قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري شاعر غزل من أهل نجد يعرف بمجنون ليلى نسبة إلى ليلى العامرية التي كان يعشقها ورفض أهلها أن يزوجوها به فهام على وجهه ينشد الأشعار إلى أن مات سنة (٦٨ هـ) نحو (٦٨٨ ر). اشتهر بحبه العذري جمع شعره في ديوان. فوات الوفيات ٢/ ١٣٦، الأغاني ٢/ ١، الشعر والشعراء ٢٢٠، الأعلام ٥/ ٢٠٨.

وهو مرآة لحواضر الحجاز المترفة وشبابه اللاهي، وشعراؤه عمر بن أبي ربيعة، والعرجي[1] والأحوص. ومن هذه الألوان الجديدة الزهد والمجون ووصف الطبيعة والأراجيز[2] وعلى هذا النحو يمكن أن نقسّم الشعراء في العصر الأموي إلى طوائف حسب الألوان التي برعوا فيها والتي اشتهروا بها. فهناك شعراء الغزل والطبيعة والمجون والزهد والسياسة. وتتميز أساليبهم واتجاهاتهم الفنية حسب أصالتهم في البداوة أو نشأتهم في المدن أو كونهم من الموالي لكنهم جميعاً ساعدوا على تحويل أغراض القصيدة العربية ومعانيها وبفضلهم أصبح الشعر الأموي يتميز بخصائص وأساليب سنقف عليها بعد عرض الشعر السياسي.

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان الأموي القرشي أبو عمر شاعر غزل مطبوع ينحو نحو عمر بن أبي ربيعة كان مشغوفاً باللهو والصيد وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء وهو من أهل مكة لقّب بالعرجي لسكناه قرية «العرج» قرب الطائف توفي في السجن سنة (١٢٠ هـ) وهو صاحب البيت المشهور:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

له: ديوان شعر: الأغاني ١/ ٢٨٣، الشعر والشعراء ٢٢٤، الأعلام ٤/ ١٠٩.

(٢) الأراجيز جمع أرجوزة قصيدة على وزن الرجز تعمّد أصحابها الغريب والغير مألوف من الألفاظ إرضاءً لعلماء اللغة وتعتبر هذه الأراجيز من باب الشعر التعليمي أو اللغوي. وقد اشتهر بها على التوالي: أبو الأسود الدؤلي، والوليد بن يزيد، وذو الرّمة، ورؤبة بن العجاج والعجاج والعجلي.

الشعر السياسي ومجمل خصائصه:

الشعر السياسي هو أكثر أنواع الشعر رواجاً في عصر بني أمية اقتضته أحوال السياسة العامة، من صراع بين الأحزاب، إلى وراثة في الحكم، إلى نظريات سياسية جديدة، إلى عصبيات قبلية قيسية ويمنية، إلى صراع عرقي بين الموالي والعرب.

والسياسة لغة كما جاء في القاموس المحيط: «سست الرعيَّة سياسة، أمرتها ونهيتها»(١). فالسياسة لغةً هي الأمر والنهي، وهي صفة من صفات الرئاسة كما يتضح مدلول اللفظة. وقد جمع الباحثون في اللغة بين السياسة والتدبير، وقد جاء في نهاية الأرب: «إذا صحَّت السياسة تمّت الرياسة»(٢). والسياسة اصطلاحاً بالاستناد إلى المدلول اللغوي يتضح أن السياسة شرط في كل من انتدب للرئاسة وهي عبارة عن امتلاك شؤون الناس والتصرف فيها بالأمر والنهي، لتدبير أحوال الرعية، لذا عنى بها المحدثون في فن التدبير وطريقة الحكم(٣).

ومجمل القول بأن المتتبع لأطوار المجتمع الإنساني خلال العصور، من البداوة إلى العمران، ومن حياة الأسرة والجماعة، إلى نظام القبيلة فالدولة، يلمس ارتقاء القافلة البشرية في وسائل العيش، وأنظمة الإدارة، وأصول المعاملة على أساس تقدم عوامل التدبير أو

---

(١) انظر القاموس المحيط للفيروزآبادي ٢/ ٢٣٠. دار الكتب العلمية.
(٢) انظر تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب صفحة ٧٣.
(٣) انظر المرجع السابق صفحة ١٨.

السياسة. ومفهوم السياسة خلال هذه الأحقاب، كان ولا يزال مرتبطاً بمعناه اللغوي الأول، ومن البديهي أن تتشعب وسائل التدبير، وتتعدّد طرقه وتتعقد مراميه بمقتضى مستلزمات الحياة ونواميسها. وإذا نحن أمعنَّا النظر في تراث الإنسانية العقلي ومستنبطاتها الفكرية، في مختلف حقول المعرفة وسائر النواحي النظرية والعملية وجدناها متأثرة دائماً بهذا التحول الحثيث للمفهوم السياسي المشار إليه، إنها صدى تجارب الأمم الإنسانية مع متطلبات الوجود الإنساني لحفظ النوع، والعمل من أجل البقاء[1].

دور الأدب في السياسة:

لقد كان للفنون والآداب القسط الكبير، والمساهمة الفعّالة في إذكاء الصراع بين الإنسان والإنسان، وبينه وبين محيطه وبيئته، منذ فجر التاريخ، ولئن باتت الحياة السياسية اليوم عند الأمم والشعوب ذات قوانين وشرائع ودساتير، ولئن أصبحت السياسة علماً واختصاصاً ومسلكاً واتجاهاً، فلا تزال الآداب تقوم بنصيبها من الأعباء في هذا الميدان الخطير، دون أن تتنازل عن مهمتها في توجيه ضمير الإنسانية، واستثارته ودفعه إلى كل نوع من أنواع الكفاح والنضال.

ماهية الشعر السياسي:

تبيّن مما تقدم أن الغرض من السياسة في كل أطوارها التحكم في

---

(١) انظر كتاب مواقف في الأدب الأموي د. عمر فاروق الطبّاع صفحة ٤١ وما بعدها. طبعة دار القلم بيروت ١٩٩١.

علاقة الناس ببعضهم، في نطاق البيئة الاجتماعية من ناحية وتجاوز ذلك إلى التصرّف في علاقة هذه البيئة بالبيئات الأخرى، انطلاقاً من حياة الأسرة فالدولة والعمل على مراعاة أحوال التطوّر وفق الظروف الزمانية والمكانية وعلى هذا النحو يكون الشعر السياسي، هو هذا اللون من الشعر الذي يواكب وقائع المجتمع من زاوية هذه الروابط بين أفراد الجماعة وبين الجماعة وسواها من المجتمعات، هادفاً من ذلك في الأصل إلى ترسيخ مكانة الفئة التي ينتمي إليها الشاعر السياسي.

ولكن كيف نفسّر هذا الارتباط بين الشعر والسياسة، ولكل منهما ماهيّة خاصّة؟ وعلى أي أساس خاض الشعراء في المجالات السياسية؟ وبأي أسلوب شاركوا في تدبير شؤون مجتمعهم؟ قد يكون ارتباط الشعر بالسياسة من الظواهر المخالفة لطبائع الأشياء للفروق الأساسية بينهما في الطبيعة والموضوع والغاية. فالشعر فن جميل ـ والسياسة علم ـ أو على الأقل كانت ولا تزال تفرض في الذين يمارسونها خبرة خاصة، وإلماماً بما يمس حياة الجماعة في تاريخها وعاداتها الغالبة وتقاليدها الراسخة، وميول الأفراد وأخلاقهم فيها.

وما دام الشعر فناً متصلاً بالوجدان وموضوعه الإحساس والشعور ومجمل عواطف النفس البشرية، وغايته الإثارة والإيحاء، والارتفاع بالذات عن الواقع ورتابته بقيمه التعبيرية والجمالية.

أما السياسة لنصيبها من العلم فمتصلة بالفكر وموضوعها الحقائق، وتأمّل الواقع، وغايتها دراسة أوضاع الحياة ومشكلاتها

لإيجاد الحلول الملائمة لها. فكيف يعنى الشعراء بما ليس من اختصاصهم؟

هناك إمكانية لتعليل العلاقة بين الشعر والسياسة وبين مهمة الشاعر والسياسي. فالسياسة في الأصل، لم تكن علماً له أصوله الثابتة بقدر ما كانت تجربة يعوّل فيها على سداد الرأي وسعة الحيلة ورجاحة المنطق. ولما كان الشاعر في المجتمعات الإنسانية الأولى ومنها المجتمع القبلي متميزاً بنباهة الفكر والقدرة على البيان كان بوسعه بدوافع غيرته على الجماعة التي ينتمي إليها وتعصبه لها، أن يدرك حاجات قومه ويدافع عن مصالحها، متأثراً بالظروف ومؤثراً فيها.

على هذا الأساس ظهر الشعر السياسي في البيئات القديمة ومنها البيئة العربية وخاض الشعراء في مشاكل مجتمعهم بأسلوبهم وطريقتهم. فما هو هذا الأسلوب؟

لقد تصدّى الشعر للمفاهيم السياسية بما لا يتنافى مع طبيعته وعناصره الفنية. فالشاعر لا يتعرّض للاعتبارات السياسية من زاوية العلم ولا يعرضها بأسلوب العالم ومنطقه، وإنما يضفي عليها من فنه ليجعلها جزءاً من القوة الروحية في المجتمع ويكسبها من حرارة قلبه وأعماقه لتنفعل بها النفوس وتستجيب لمؤثراتها. فأسلوب الشعر السياسي إذاً هو الأسلوب الوجداني الباعث على التأمل، المحرّك للعواطف، وهو لا يخاطب العقل بالقياس والمنطق، وليست غايته الإقناع بالجدل والبرهان، بل يسلك إلى ذلك سبيل التأثير الشعوريّ ويمتلك النفوس بالأخيلة البيانية، والصور البليغة، فيلجأ إلى التضخيم والمبالغة ويختار العبارة الدّالة، مكتفياً بالإشارة والتلميح

دون الإحاطة والاستقصاء[1].

لقد اتسم الشعر السياسي عند العرب منذ الجاهليّة حتى اليوم بسمات مختلفة اقتضتها الأحداث الكبرى التي شغلت الناس في كل مرحلة من مراحله: فهو يتعلق بالسياسة القبلية في الجاهلية، والسياسة الدينية في بدء الإسلام والسياسة الحزبية في العصر الأموي، وبالنزاع العنصري في العصر العباسي. ولقد تشعبت أغراضه في أدب النهضة الحديثة فتولى الدفاع عن الحقوق القومية والأهداف الوطنية، والعدالة الاجتماعية.

نشأة الشعر السياسي عند العرب:

لم تعرف الحياة القبلية نظاماً في الحكم له قانونه، سوى النظام القبلي القائم على العرف وهو ما تجمَّع عندهم من خبرة في الحياة، وما نزل من عاداتهم وتقاليدهم منزلة الشرائع.

وفي إطار هذا النظام، كانت سياسة القبيلة الداخلية والخارجية منوطة برئيس فيه الحكمة والجرأة، وذوي الرأي من عقلاء القبيلة وشيوخها. وقد كان لشعراء القبائل، إلى جانب خطبائها أثر ملحوظ في سياستها. وقد ذهب كثير من الباحثين إلى القول بأن الشعراء كانوا أهل المعرفة في الجاهلية لما تميزوا به من إلمام بأخبار العرب وأنسابهم ولإحاطتهم بالمناقب والمثالب وقدرتهم على التوجيه في الحرب والسلم.

---

(١) نفس المرجع السابق صفحة ٤٣ وما بعدها.

وقد كانت قصائد الشعراء في العصر الأموي تحدث فعلها في نفوس القوم، وتؤثر في عواطفهم وأفكارهم تأثير الصحف والمجلات والإذاعات في وقتنا الحاضر. ولهذا السبب بالذات كان للشعر مكانة مرموقة عند العرب، وكان للشاعر أهمية بالغة في قبيلته. وقد نقلت إلينا كتب الأقدمين مختلف الأخبار ومتعدّد الروايات عن طرق الاحتفال بالشعر، والابتهاج بنبوغ الشعراء، كما حفظت لنا الوقائع الكثيرة التي تشهد لهؤلاء بالتأثير في بيئتهم إذ كانوا قادرين على أن يرفعوا بشاعريتهم منزلة الخامل حتى يشتهر ويضعوا من مرتبة القوي حتى يضعف.

لم تعرف البيئة الجاهلية للعرب حروباً طويلة كحرب «البسوس»[1] التي احتدمت طويلاً بين تغلب وبكر منذ مقتل كليب، وحرب «داحس والغبراء»[2] التي قامت بين عبس وذبيان في أعقاب

---

(١) حرب جرت بين تغلب وبكر أبني وائل دامت أربعين سنة، قيل إنه كان للبسوس وهي خالة جسّاس ناقة فرآها كليب بن ربيعة قد كسرت بيض حمام في حماه فقتلها. فظل جسّاس يترقب الفرص حتى اغتال كليباً. فثارت تغلب بقيادة المهلهل لدم كليب ونشبت الحرب وجسّاس شقيق جليلة زوجة كليب، فلحقت جليلة بقومها وأبيها بعد مقتل كليب وكانت حاملاً فولدت الهجرس فربّاه خاله جسّاس، ولما شبّ واكتشف نسبه لأبيه كليب قتل جسّاساً ولحق بقومه تغلب. ثم اعتزل المهلهل الحرب، وقال لقومه: «قد رأيت أن تبقوا على قومكم فإنهم يحبون صلاحكم وقد أتت على حربكم أربعون سنة وفني الحيان». وهاجر إلى اليمن ثم عاد بعد زمن. وتوفي بين أهله وعشيرته. ولهذه الحرب أيام مشهورة من أيام العرب: أشهرها الذنائب، عنيزة، واردات، قضة، القصيبات، التحالق. نهاية الأرب ٤٠٥.

(٢) حرب السباق. وقعت بين عبس وذبيان لخلاف على سباق الخيل بين فرسين=

السباق المشهور وقد أثرت هذه الحروب في شعر عمرو بن كلثوم[1]، والحرث بن حلزة[2] وعنترة[3] والنابغة[4] وتعتبر الأيام التي تضم وقائع الخصومة والمنافرة بين أحياء العرب من بواعث الشعر السياسي الهامة في الجاهلية.

= وعرفت باسميهما: داحس والغبراء. استمرت أربعين سنة ذكرها زهير بن أبي سلمى في معلقته، أشهر أيامها: المريقب وبطله عنترة بن شداد، وذي حساء، واليعمرية، والهباءة، وفروق، وقطن. نهاية الأرب ٤٠٥.

(١) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب من بني تغلب أبو الأسود شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، ولد في شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة، عمّر طويلا وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. أشهر شعره معلقته التي مطلعها:

«ألا هبي بصحنك فأصبحينا»

مات في الجزيرة الفراتية سنة ٤٠ قبل الهجرة - الأغاني ١١/ ٥٢، الشعر والشعراء ٦٦، الأعلام ٥/ ٨٤.

(٢) هو الحرث بن حلزة من بني يشكر وكان أبرص. انظر الشعر والشعراء ٢٩/ ٠.

(٣) هو عنترة بن شداد بن عمرو بن قراض العبسي أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى أمه حبشية اسمها زبيبة. سرى إليه السواد منها وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً يوصف بالحلم على شدة بطشه وفي شعره رقة وعذوبة. كان مغرماً بابنة عمه «عبلة» قتله الأسد الرهيص أو جبار بن عمرو الطائي سنة ٢٢ قبل الهجرة. ينسب إليه ديوان شعر: الأغاني ٨/ ٢٣٧، الشعر والشعراء ٧٥، الأعلام ٥/ ٩١.

(٤) هو زياد بن معاوية أبو أمامة شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء وتعرض عليه أشعارها. شعره كثير جمع بعضه في ديوان صغير. عاش عمراً طويلا توفي سنة (١٨ قبل الهجرة)، الشعر والشعراء ٣٨، الأعلام ٣/ ٥٤.

ومن الشعراء الذين اشتهروا في هذا الصراع القبلي النابغة الذبياني فقد ردّ على خصوم بني ذبيان، وتراه يشيد بأحلاف قومه من بني أسد ويهدّد من يبغي الإساءة إليهم، ذاكراً أيام ظفرهم ومواطن فخرهم كقوله في الردّ على زرعة بن عمرو:

إذا حـاولـت فـي أسـد فجـوراً
فـإنـي لسـت منـك ولسـت منـي
فهـم درعـي التـي استـلأمـت فيهـا
إلـى يـوم النسّـار وهـم مجنّـي
وهـم وردوا الجفـار علـى تميـم
وهـم أصحـاب يـوم عكـاظ إنـي[1]
شهـدت لهـم مـواطـن صـادقـات
أتيـتـم بـودّ الصـدر منـي

ويتتبع النابغة أمجاد بني أسد، فيصف شدّة بأسهم، ذاكراً قتلهم لحجر والد امرىء القيس، وزحفهم على بني غسان، ممتدحاً أبطالهم المجرّبين في الوغى، مشبهاً إياهم فوق الخيول الضامرة بالليوث الضارية، أو الجن:

وهـم سـاروا لحجـر فـي خميـس
وكـانـوا يـوم ذلـك عنـد ظنـي[2]

---

(١) الجفار: ماء لبني تميم عنده كانت وقعة بين تميم وبكر ـ يوم عكاظ ـ وقعة بين قريش وهوازن.

(٢) حجر: والد امرىء القيس وهو من ملوك كندة. الخميس: الجيش.

وهـــم زحفـــوا لغسّـــان بـــزحـــف
رحيـــب الســـرب أرعـــن مـــرجحـــن[1]
بكـــل مجـــرب كـــالليـــث يسمـــو. . .
علـــى أوصـــال ذيّـــال رفـــن[2]
وضمـــر كـــالقـــداح مســـوّمـــات
عليهـــا معشـــر أشبـــاه الجـــن[3]

وفي هذه القصيدة يخطّىء النابغة عيينة في ما ذهب إليه ويصفه بالحمق وتقلب الأهواء:

كـــأنـــك مـــن جمـــال بنـــي أقيـــش
يقعقـــع خلـــف رجليـــه بشـــن[4]
تكـــون نعـــامـــة طـــوراً، وطـــوراً
هـــويّ الـــريـــح تنسـج كـــل فـــن[5]
ولـــو أنـــي أطعتـــك فـــي أمـــور
قـــرعـــت نـــدامـــة مـــن ذاك سنّـــي

---

(١) رحيب السرب: واسع الصدر. مرجحن: ثقيل.
(٢) ذيّال: صفة للفرس الطويل الذيل. الرفن: بالمعنى السابق.
(٣) الضمر: صفة للخيل الضامرة. القداح: جمع قدح، سهم الميسر. مسوّمات: لها علامة.
(٤) الشن: القربة البالية، أو الشيء اليابس.
(٥) شبهه بالنعامة لحمقه، وبالريح لتقلّب أهوائه.

وهذه صورة من شعر النابغة في السياسة القبلية تظهر من خلالها خصائص هذا الفن وطبيعة أسلوبه.

فالشاعر في مخاطبته لعيينة الفزاريّ الذي دعا ذبيان إلى نقض حلفها مع بني أسد، يرعى مصالح قومه، ويرى الإبقاء على صداقة بني أسد ضرورة من ضروريات عزّتهم فيلجأ إلى تهديد الخصم، وتدفعه نظرته النافذة في الأمور إلى مديح الأحلاف بما يتفق والمهام التي ينتدبهم إليها، من نصرة ذبيان وخوض المعركة إلى جانبهم ويمعن في تجريح رأي الدخيل، والاستخفاف به، فإذا بالشعر السياسي إطار لعدد من الأغراض الشعرية. أما الأسلوب الذي اتّبعه النابغة في هذا الشعر، فهو أسلوب الإثارة يتجلّى تارة في الوعيد وأخرى في الحماس وطوراً في الهجاء في كلّ هذه اللهجات على الجدّ الحازم والحمية والاندفاع وقوة الشخصية.

ويقول الدكتور عمر فاروق الطباع: «وإذا استقصينا هذه النزعة عند البارزين من شعراء هذا العصر، لمسنا دائماً اتجاه الشاعر القبلي، لينصر فريقاً على فريق تعظيماً وتحقيراً، وذماً وإطراءً، بأساليب متباينة تتفق مع المواقف وتتلاءم مع مكوّنات هذه الشخصيات الشاعرة كما هي الحال عند الحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم في بلاط عمرو بن هند».

ومجمل القول فقد كان الشاعر الجاهلي يحاول أن يوفر في شعره كثيراً من القيم الصوتية والتصويرية فتجد أن

زهيراً[1] يعنى بنماذجه عناية شديدة وهو يوزع هذه العناية في كل جانب، ولذلك كان يحقق لنماذجه وصوره كل ما يمكن من مهارة وبراعة لا تقف عند هذه الجوانب بل تتعدّاها إلى جانب آخر مهم، وهو جانب الإغراب في التصوير على نحو ما نراه يصور الحرب في معلّقته هذا التصوير الرائع:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر إذا ضرّيتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرّحى بثفالها
وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها
قرى بالعراق من قفيز ودرهم

---

(1) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني من مضر حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضله على الشعراء كافة. ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة. وكان يقيم في الحاجر من ديار نجد. وكانت قصائده تسمى الحوليات. أشهر شعره معلقته التي مطلعها:

«أمن أم أوفى دمنة لم تكلم».

له ديوان ترجم كثير منه إلى الألمانية. توفي سنة (١٣ قبل الهجرة)، الأغاني ١٠/ ٢٨٨، الشعر والشعراء ٤٤، الأعلام ٣/ ٥٢.

فإن الصور تزدحم في تلك الأبيات وليس هذا ما يلفتنا بل الصور الغريبة التي صور فيها الحرب تطول بل هي تغلّ لهم غلّة ليست كغلّة أهل العراق ففيها الموت والهلاك، ولا شك أنه تعب قبل أن يصل إلى هاتين الصورتين في وصف الحرب ويقول في تصوير آخر وأكثر تعقيداً إذ يقول في حروب القبائل التي لا تخمد نارها:

رعـــوا مـــا رعـــوا مـــن ظمئهـــم ثـــم أوردوا
غمـــاراً تسيـــل بـــالـــرمـــاح وبـــالـــدّم
فقضّـــوا منـــايـــا بينهـــم ثـــم أصـــدروا
إلـــى كـــلأ مستـــوبـــل متـــوخـــم

فقد عبّر عن سلمهم وحربهم وما يبلون منها بتلك الصور من الإبل التي ترعى مراعي وبيلة، فإذا أرادت أن تشرب لم تجد إلا تلك المياه التي تسيل بالرماح وبالدم.

أما في صدر الإسلام فقد كان للنبي موقف صريح من الشعر... يحاربه ما دام وسيلة للتنافر وتحكيم العصبية، ويعجب بما فيه أحياناً من الحكمة والبيان والبلاغة، وحين سمع بيت طرفة بن العبد(١):

---

(١) هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو نحو (٨٦ ـ ٦٠ قبل الهجرة) شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ولد في بادية البحرين، قتله المعكبر شاباً في «هجر» قيل: ابن عشرين عاماً، وقيل: ابن ست وعشرين. أشهر شعره معلقته التي مطلعها:
«لخـــولـــة أطـــلال ببـــرقـــة ثهمـــد».
=

ستبـــدي لـــك الأيـــام مـــا كنـــت جـــاهـــلاً
ويـــأتيـــك بـــالأخبـــار مـــن لـــم تـــزود

قال: «هذا من كلام النبوة، إن من البيان لسحراً». كذلك كان يرغب الشعر إذا جاء دفاعاً عن مبدأ عادل أو ذوداً عن حق، وأصدق كلمة قالها شاعر في نظره قول لبيد[1] :

«ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

ولمّا أثارت قريش شعراءها في هجاء الرسول وصحبه، والتهجّم على العقيدة الجديدة أهاب النبي بشعراء الإسلام للرّد عليهم، لعلمه بما للشعر من تأثير في نفوس العرب، وقد قال للأنصار يومذاك: «ما

= وجمع المحفوظ من شعره في ديوان صغير ترجم إلى الفرنسية كان هجاءً غير فاحش القول. الشعر والشعراء ٤٩، الأعلام ٣/ ٢٢٥.

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري. أحد الشعراء الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ. ويعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم وترك الشعر ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً قيل هو:

مـــا عـــاتـــب المـــرء الكـــريـــم كنفســـه
والمـــرء يصلحـــه الجليـــس الصـــالـــح

سكن الكوفة وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات ومطلعها:

عفـــت الـــديـــار محلهـــا فمقـــامهـــا
بمنـــى، تـــأبـــد غـــولهـــا فـــرجـــامهـــا

جمع بعض شعره في ديوان صغير ترجم إلى الألمانية توفي سنة (٤١ هـ). انظر الشعر والشعراء ٢٣١، الأعلام ٥/ ٢٤٠.

يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»[1]. فانبرى حسّان بن ثابت[2] وكعب بن مالك[3]، وعبد الله بن رواحة[4] يسفّهون شعراء قريش أمثال عبد الله بن الزبعري[5]، وأبي سفيان[6] وعمرو بن

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٦/٣. وما بعدها.

(٢) هو حسّان بن ثابت الأنصاري أبو الوليد الصحابي شاعر النبي ﷺ. وأحد المخضرمين ـ أدرك الجاهلية والإسلام ـ وكان من سكان المدينة اشتهرت مدائحه في الغسّانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام (عمي قبيل وفاته) كان شديد الهجاء توفي سنة (٥٤ هـ). الأغاني ٤/ ١٣٤، الشعر والشعراء ١٠٤، الأعلام ٢/ ١٧٥.

(٣) هو كعب بن مالك الأنصاري السلمي صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة اشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ وشهد أكثر الوقائع ثم كان من أصحاب عثمان وأنجده يوم الثورة. عمي في آخر عمره. توفي سنة (٥٠ هـ) له ٨٠ حديثاً و «ديوان شعر»، الأغاني ٢٩/١٥، الأعلام ٢٢٨/٥.

(٤) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري أبو محمد صحابي يعد من الأمراء والشعراء الراجزين. كان يكتب في الجاهلية. وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار وكان أحد النقباء الاثني عشر وشهد بدراً وأحد والخندق والحديبية توفي في البلقاء من أرض الشام في موقعة مؤتة سنة (٨ هـ). انظر حلية الأولياء ١/ ١١٨، والأعلام ٤/ ٨٦.

(٥) هو عبد الله بن الزبعري بن قيس السهمي القرشي. أبو سعد شاعر قريش في الجاهلية. كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة. فهرب إلى نجران. فقال فيه «حسّان» أبياتاً. فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة. توفي نحو (١٥ هـ). انظر الأغاني ١/ ٤/ ١٤، طبقات الشعراء ابن سلام ٥٧ ـ وما بعدها، والأعلام ٤/ ٨٧.

(٦) هو صخر بن حرب بن أمية. صحابي من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية. كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام=

العاص[1] ويهجونهم مفندين أباطيلهم حاملين على مزاعمهم.

ولقد تميز الشعر السياسي في صدر الإسلام بمدح النبي ﷺ، والذود عن عقيدة الإسلام وهجاء أعداء الدعوة الإسلامية، وتبيان ما في الوثنية من الزيغ والضلال. وقد عني شعراء تلك الفترة بتأريخ غزوات النبيّ كغزوة بدر، وأحد، والافتخار ببطولة المؤمنين، والتغنّي بالظفر على قريش، ورثاء الصرعى من الشهداء. ولم يخل هذا الشعر من الحكمة المتأثرة بالثقافة الدينية المتضمنة بعض المعاني القرآنية. ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة يهجو قريشاً ويعتز بالإسلام:

نجالد الناس عن عرفنا سرهم
فينا النبي وفينا تنزل السوّر
وقد علمتم بأنّا ليس غالبنا
حيّ من الناس أن عزّوا وإن كثروا

= عند ظهوره أسلم يوم فتح مكة وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن شهد حنيناً والطائف. قال ابن المسيب: «فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول: يا نصر الله اقترب. قال فنظرت فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد». توفي بالمدينة وقيل بالشام سنة (٣١ هـ) وكانت ولادته سنة (٥٧ قبل الهجرة). انظر الأغاني ٦/ ٨٩، نكت الهميان ١٧٢، الأعلام ٣/ ٢٠١.

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أبو عبد الله (٥٠ ق هـ - ٤٣ هـ) فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم أسلم في هدنة الحديبية. ولاّه النبي ﷺ إمرة جيش «ذات السلاسل» وأمده بأبي بكر وعمر، وهو الذي افتتح قنسرين. وصالح أهل حلب ومنبج وإنطاكية. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان عمرو مع معاوية. أخباره كثيرة. انظر الإصابة ٢/ ٥٠١، والأعلام ٥/ ٧٩.

يــا هــاشــم الخيــر إن الله فضّلكــم
علــى البــريّــة فضــلاً مــا لــه غيــرُ
فثبــت الله مــا آتــاك مــن حســن
تثبيــت مــوســى، ونصــراً كــالــذي نصــروا

وهذا حسّان بن ثابت، شاعر النبي يرد على أبي سفيان ويعرّض به:

هجــوت محمــداً فــأجبــت عنــه
وعنــد الله فــي ذاك الجــزاء
فــإن أبــي ووالــده وعــرضــي
لعــرض محمّــد منكــم وقــاء
أتهجــوه ولســت لــه بكــفءٍ
فشــركمــا لخيــركمــا الفــداء

ومما قاله كعب بن مالك يوم أحد:

فجئنــا إلــى مــوج مــن البحــر وسطــه
أحــابيــش منهــم حــاســر ومقنَّــع(١)
ثــلاثــة آلاف ونحــن نصيــة
ثــلاث مئيــن إن كثــرنــا وأربــع
فــراحــوا ســراعــاً مــوجفيــن كــأنهــم
جهــام هــراقــت مــاءه الــريــح مقلــعُ

---

(١) الأحابيش: جماعة من قريش نسبت إلى جبل «حبشي» لأنهم اتفقوا عنده. الحاسر: الذي ليس على رأسه خوذة.

ورحنـــــا وأخـــرانـــا بطــــاء كــــأننـــا
أســـــود علــــى لحـــم ببيشــــة ضلّـــعُ

وواضح من المقاطع السابقة، أن هذا اللون من الشعر في صدر الإسلام كان يتميز بالبعد والمبالغة، والميل إلى الدقة، والعناية بالوضوح في المعاني وجزالة الأسلوب وقوة البيان، وصدق الشعور.

وبانتصار الدعوة الإسلامية، وإذعان قريش لأمرها، ودخول كافة العرب ضمن دائرة الدين الجديد، انتهى الصراع بين شعراء قريش وشعراء النبي، وخمدت جذوة الشعر السياسي، واستمرت كذلك خلال عهد الراشدين، ولكنها عادت قوية ضارية بعد مصرع عثمان، واحتدام الخلاف بين معاوية والإمام علي. وهكذا تجددت معركة الشعر ببدء الثورات والفتن الدامية بين المسلمين، وشهد الشعر السياسي ذروة تطوره في العصر الأموي.

الشعر السياسي في العصر الأموي وأغراضه:

كان لأساليب الدهاء والخداع التي استند إليها معاوية وعمرو بن العاص في حادثة التحكيم أثر سيىء في نفوس المسلمين عامة، وآل البيت خاصة. ومع أن الأمور قد استتَبت لبني أمية وتمكّنوا من استلام زمام المبادرة، فإن صفوف المعارضين زادت قوة وشدة. وإذا كانت العصبية القبلية قد انخذلت شوكتها إبّان صدر الإسلام، بفضل الرابطة الجديدة التي جمعت العرب ووحّدت كلمتهم فإن تعزيز الأمويين

لقريش، أيقظ هذه العصبيات النائمة، وأثار نعرتها، فنشأت الأحزاب السياسية.

وكان لظهورها الأثر القوي في تكوين الآراء والنظريات حول الخلافة وصاحب الحق فيها، وكان لا بد للشعر أن يخوض معركة الصراع بين هذه الأحزاب، وأن يدخل معترك الجدل السياسي الذي احتدم بين بني أمية أصحاب الدولة آنذاك وخصومهم، وعلى هذا النحو بات الشعراء في كل من هذه التكتلات السياسية دعاة للعقيدة السياسية عند كل جماعة وعاد الشعر السياسي أكثر توقداً وازدهاراً وأوسع أفقاً مما كان عليه في العهدين السابقين. واعتبر الشعر السياسي هو أكثر أنواع الشعر رواجاً في ذاك العصر اقتضته أحوال السياسة عامة. من صراع الأحزاب، إلى وراثة الحكم، إلى نظريات سياسية جديدة، وإلى عصبيات قبلية قيسية ويمنية، وإلى صراع عرقي بين الموالي والعرب. ومن أبرز خصائص هذا الفن:

١ ـ إنه أصبح غرضاً يقصد لذاته وتنشد فيه القصائد حتى عُدَّ من الأغراض التي جدَّت في العصر الأموي. وقد امتد أثره فشمل كل الأغراض كالمدح والهجاء والفخر وحتى الغزل (تغزّل ابن الرقيّات بأم البنين).

٢ ـ إنه أصبح موزعاً بين الأحزاب. لكل حزب شعراؤه الذين ينطقون باسمه ويدافعون عنه وينادون بحقه، ويردّون على الأعداء ويهجونهم ويمتدحون الشخصيات التي تتزعم الأحزاب، ويربطون كل ذلك بالدين وتعاليمه وأسسه.

٣ ـ إنه كان لشعر كل حزب خصائص تميّزه عن شعر الأحزاب

الأخرى. فشعر الأمويين يمتاز بأنه:

أ ـ يضفي على الخلافة الأموية هالة من الدين، وينادي بما يزعم بمقولة الحق الإلهي في الحكم.

ب ـ يطالب بحق عثمان بالخلافة وحق الأمويين بإرثه.

ج ـ يحمل شعراؤه على خصوم بني أمية ويكفرون بعضهم لأنهم يعصون الخلفاء الذين اختارهم الله على زعمهم ومنحهم السلطان والتأييد.

د ـ يشارك بعض شعرائه في السياسة الأموية نفسها، من مناصرة أمير على أمير. كما فعل مسكين الدارمي[1] حين روّج لبيعة يزيد، وكما فعل النابغة الشيباني حين أيّد رأي عبد الملك في نزع الولاية عن أخيه، وجعلها لابنه وجرير حين جارى الوليد بن عبد الملك في خلع أخيه وتولية ابنه.

أما شعر الشيعة فيمتاز بما يلي:

١ ـ الإشادة بحب آل البيت، إذ كان الشعراء يجدون في هذا الحب تبركاً ومثوبة.

٢ ـ التفجع على القتلى من الطالبيين، ورثاؤهم ورثاء أنصارهم.

٣ ـ الاحتجاج للشيعة وإظهار ما زعموا حقهم بالخلافة.

---

(١) هو ربيعة بن عامر توفي (٨٩ هـ). انظر الأعلام ١٦/٣.

٤ ـ الحملة على بني أمية لانتزاعهم هذا الحق وقسوتهم على آل البيت ومن يناصرهم.

٥ ـ المناداة برجعة الإمام المنتظر، لينشر العدل في الأرض ويعيد إلى ربوعها السلام.

٦ ـ حرارة العاطفة في التفجّع والبكاء والنقمة على الظالمين.

٧ ـ غلبة العاطفة الدينية على شعرهم.

وأما شعر الخوارج ففيه:

١ ـ تصوير لشجاعتهم وبطولتهم وتفانيهم في سبيل مبادئهم.

٢ ـ تصويرهم لما اعتقدوه تقوى وزهداً وقضائهم الليالي في الصلاة والتهجّد، وانصرافهم في النهار إلى الجهاد والحرب.

٣ ـ حضّ على الثورة وتأجج ضد الأمويين أولاً والطالبيين ثانياً.

٤ ـ اتصاف بشيء كثير من الجزالة الأسلوبية وقوة التعبير وخلو من العصبية العرقية أو القبلية لأن مبادئهم قد وحدت بينهم وطبعتهم بطابع التحابّ والديموقراطية. لا يؤثرون عربياً على عجمي ولا قرشياً على غير قرشي.

٥ ـ تشابه في المعاني والأسلوب والموضوعات، لاستقائهم من نبع واحد، وتغنيهم بعاطفة واحدة.

أما في شعر الزبيريين فليس فيه مميزات خاصة، سوى الدعوة إلى جعل الخلافة في قريش، والإشادة بعبد الله بن الزبير والاحتجاج له بأنه أكفأ القرشيين وأحقهم بالخلافة. ولقد عمد عبيد الله بن قيس

الرقيّات إلى نوع من الكيد لبني أمية، بأن تغزّل بأم البنين، وأفحش في ذلك ولم ينجه من العقاب سوى شفاعة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[١] وأم البنين نفسها.

ولقد كان الشعر في العصر الأموي يشتمل على مطالع غزلية ووصف للطلول، وعلى مديح وهجاء، وفخر ومحّاجة، ووصف للمعارك والحروب، وإشادة بالانتصارات والأبطال الذين حققوها.

وتفرعت السياسة في الشعر إلى نوعين: حزبية وقبلية. أما السياسة الحزبية فكانت تلوذ بالأحزاب التي ذكرناها آنفاً. وأما السياسة القبلية فكانت تتناول حياة القبائل واتجاهاتها وعصبياتها وحروبها، كما هي الحال بين القيسية واليمنية، وكما هي الحال أيضاً بين تميم والأزد، وغطفان وتغلب وقيس عيلان وغيرها. لكن العصبيات القبلية نفسها كانت أكثر الأحيان مشدودة إلى عجلة الخلافة والحزبيات، كما نرى في شعر الأخطل وجرير والفرزدق وسواهم.

كذلك حافظ الشعر الأموي على كثير من الأغراض القديمة كالفخر والحماسة والرثاء، والطرديات والمديح والهجاء. ولكن بعض هذه الأغراض لم تقف عند معالمها القديمة بل تعدّت إلى آفاق رحبة من حيث المعاني والصور والأخيلة والقيم الشعورية. وفي مقدمة هذه الفنون التي انساقت مع روح العصر واستجابت

---

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب صحابي ولد بأرض الحبشة وهو أول من ولد بها من المسلمين (١ هـ) كان كريماً يسمى بحر الجود وللشعراء فيه مدائح وكان أحد الأمراء في جيش علي يوم صفين. مات بالمدينة (٨٠ هـ). فوات الوفيات ١/٢٠٩، الأعلام ٤/٧٦.

لأحداثه وظروفه المديح والهجاء. فالمديح قوي شأنه في العصر الأموي، وأقبل عليه الشعراء يتكسبون به وتشجعهم في ذلك هبات الأمويين وكثرة عطائهم. والمديح نوعان:

أ ـ مديح سياسي:

يدخل في نطاق شعر السياسة. معظمه كان تطوعاً وإيماناً بحق الممدوح بفضله، كامتداح شعراء الأحزاب لزعمائهم، وتغنّيهم بفضلهم، ولا سيما ذلك المديح الذي كان يوجّه إلى آل البيت؛ وأفضل مثال عليه ما قاله الفرزدق في مدح زين العابدين:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه، والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
بجدّه انبياء الله قد ختموا
وليس قولك «من هذا؟» بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم
كلتا يديه غياث عم نفعهما
يستوكفان، ولا يعروهما عدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره
يزينه اثنان: حسن الخلق والشيم
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا

حلـــو الشمـــائـــل تخلـــو عنـــده نعـــم

مـــا قـــال: لا قـــط إلا فـــي تشهـــده

لـــولا التشهـــد كـــانـــت لاءه نعـــم

عـــمّ البـــريـــة بـــالإحســـان فـــانقشعـــت

عنهـــا الغيـــاهـــب، والامـــلاق والعـــدم

إذا رأتـــه قـــريـــش قـــال قـــائلهـــا:

«إلـــى مكـــارم هـــذا ينتهـــي الكـــرم»

يغضـــي حيـــاء ويغضـــى مـــن مهـــابتـــه

فمـــا يكلّـــم إلاَّ حيـــن يبتســـم

يكـــاد يمسكـــه عـــرفـــان راحتـــه

ركـــن الحطيـــم إذا مـــا جـــاء يستلـــم

الله شـــرّفـــه قـــدمـــا، وعظمـــه

جـــرى بـــذاك لـــه فـــي لـــوحـــه القلـــم

مشتقـــة مـــن رســـول الله نبعتـــه

طـــابـــت مغـــارســـه والخيـــم والشيـــم

مـــن معشـــر حبّهـــم ديـــن وبغضهـــم

كفـــر، وقـــربهـــم منجّـــي ومعتصـــم

مقـــدم بعـــد ذكـــر الله ذكـــرهـــم

فـــي كـــل بـــدء ومختـــوم بـــه الكلـــم

إن عـــدّ أهـــل التقـــى كـــانـــوا أئمتهـــم

أو قيـــل: «مـــن خيـــر أهـــل الأرض؟» قيـــل: «هـــم»

وقيل: إن هشام بن عبد الملك، حجَّ إلى مكة في خلافة أبيه

فقام بالطواف وسعى إلى التماس الحجر الأسود، فمنعه زحام الحجيج من بلوغه وفيما هو يتأمل الجموع مع نفر من رجاله، أقبل علي بن الحسين الملقَّب بزين العابدين وكان قد طاف بالبيت الحرام ورام الحجر الأسود، فأسرع الناس بإفساح الطريق له وانشقت صفوفهم لتمكينه من استلامه. فسئل هشام بن عبد الملك: من يكون هذا الذي أحاطه الناس بالتجلّة والوقار؟ فأنكر هشام أمره وقال: لا أعرفه، لئلا تجتمع القلوب حوله.

لكن الفرزدق أجاب السائل: «أنا أعرفه». فقيل له: «ومن هو يا أبا فراس؟» فأنشد الفرزدق قائلاً:

هـــذا الـــذي تعـــرف البطحـــاء وطـــأتـــه
والبيـــت يعـــرفـــه والحـــل والحـــرم

فأثار هذا المديح غضب هشام وأمر بحبس الفرزدق فهجاه بقوله:

أتحبسنـــي بيـــن المـــدينـــة والتـــي
إليهـــا قلـــوب النـــاس يهـــوي منيبهـــا
يقلـــب رأســـاً لـــم يكـــن رأس سيّـــد
وعيـــن لـــه حـــولاء بـــاد عيـــوبهـــا

فلما سمع هشام هذا الشعر سارع بإطلاق سراحه خوفاً من أن يتمادى في هجائه.

ب ـ مديح تكسّبي:

لم تراع فيه النزعات السياسية الخاصة بالشعراء، وإنما كان

أصحابه يبيعونه من خلفاء بني أمية وقوادهم وولاتهم مع أنهم في داخل أنفسهم يكرهون بني أمية. ولسنا نقول إن جميع ما ورد من هذا المديح لم يكن مبنياً على الصدق والإخلاص، وإنما نقول: إن الكثير منه كان كذلك. والأمويون يعرفون حقيقة الأمر تمام المعرفة لكنهم يغضُّون النظر عن هذا، بل ويعتمدون استمالة الشعراء المعارضين إليهم كي يمدحوهم، لما في ذلك من دعاوة لهم، ولما فيه من تأليف قلوب الشعراء، وإسكاتهم عن هجاء بني أمية والتعصّب لأحزابهم. لذا تراهم قد استقدموا أكثر الشعراء الذين ظهروا في عصرهم وأجزلوا لهم العطاء واشتروا مدائحهم.

ومن أبرز مدّاحي العصر الأموي:

جرير، والأخطل، والفرزدق وراعي الإبل، والنابغة الشيباني[1]، وأبو العباس الأعمى، وعبيد الله بن قيس الرقيّات. على أن عدد الشعراء الذين وفدوا على البلاط الأموي ولا سيّما في أيام عبد الملك بن مروان بلغ عدة مئات.

ـ الهجاء:

من الفنون الشعرية التي شاعت كثيراً في العصر الأموي لأغراض سياسية ولعصبيات قبلية وأسباب شخصية خاصة بالشعراء. ويمتاز

---

(١) هو عبد الله بن المخارق بن سليم بن حضيرة بن قيس من بني شيبان: شاعر بدوي من شعراء العصر الأموي كان يفد إلى الشام فيمدح الخلفاء ويجزلون له العطايا. له في الوليد مدائح كثيرة، ومات في أيام الوليد بن يزيد سنة (١٢٥ هـ) له (ديوان شعر). انظر الأغاني ٧/ ١٠٦، والأعلام ٤/ ١٣٦.

هجاء العصر الأموي بإقذاعه وإفحاشه وامتلائه بالشتائم، وبذاءة الألفاظ، والصور الخبيثة التي كان الشاعر يسخر بواسطتها من خصمه ويحط من قدره بين الناس.

وأفحش الأهاجي ما قاله الفرزدق وجرير في ما سمّي بالنقائض، ولكن جرير كان أشد قسوة من صاحبه وأكثر سخرية وأقدر على الإفحام، وقصيدته الدامغة[١] في الراعي النميري وبني نمير مشهورة جداً.

ومنها قوله:

فمـــا هبــت الفـــرزدق قـــد علمتـــم
ومـــا حـــق ابـــن بـــروع إن يهـــابـــا[٢]
أعـــــدّ الله للشعــــــراء منـــــي
صـــواعـــق يخضعـــون لهـــا الـــرّقـــابـــا
قـــرنـــت العبـــد عبـــد بنـــي نميـــر
مـــع القينيـــن، إذ غلبـــا، وخـــابـــا
أتـــانـــي عـــن عـــرادة قـــول ســـوء،
فـــلا، وأبـــي عـــرادة مـــا أصـــابـــا[٣]

---

(١) الدامغة: سمّيت بذلك لأن وقعها الشديد يبلغ الدماغ فيصيب مقتله.
(٢) بروع: اسم ناقة الراعي النميري. نسبه جرير إلى ناقته تهكماً واحتقاراً.
(٣) عرادة: رواية الراعي النميري.

لبئس الكسب تكسبه نمير
إذا استأنوك وانتظروا الإيابا
أتلتمس السباب بنو نمير؟
فقد وأبيهم لاقوا سبابا!
أنا البازي المدّل على نمير
أتحت من السماء لها انصبابا؟
إذا علقت مخالبه بقرن
أصاب القلب، أو هتك الحجابا
ترى الطير العتاق تظل منه
جوانح للكلاكل أن تصابا[1]
فلا صلّى الإله على نمير
ولا سقيت قبورهم السحابا!
وقد حلّت نساء بني نمير
وما عرفت أناملها الخضابا[2]
إذا حلّت نساء بني نمير
على تبراك خبّثت الترابا[3]

---

(١) الطير العتاق: خيارها، الكلاكل: ج كلكل، الصدر، جوانح: مائلات أي أن الطيور الكاسرة تخاف هذا البازي فتلتصق بالأرض أو تتجنبه بالابتعاد عنه.

(٢) جلّت: لقطت الجلة. البعرة، يقصد أن نساء بني نمير لا يعرفن سوى القذارة يلتقطن بأيديهن بعر الدواب فتتسخ ولسن كالنساء المكرّمات اللواتي يخضبن أناملهن.

(٣) تبراك: ماء لبني العنبر، أين أنهن يدنسن التراب المحيط بهذا الماء لأنهن مرذولات.

ولــــو وزنـــت حلـــوم بنـــي نميـــر
عمـــى الميـــزان، مـــا وزنـــت ذبـــابـــا[1]

فصبـــراً يـــا تيـــوس بنـــي نميـــر
فـــإن الحـــرب مـــوقـــده شهـــابـــا

ستهـــدم حـــائطـــي قـــرمـــاء منّـــي
قـــواف لا أريـــد بهـــا عتـــابـــا[2]

دخلـــن قصـــور يثـــرب معلمـــات
ولـــم يتـــركـــن مـــن صنعـــاء بـــابـــا

تطـــولكـــم جبـــال بنـــي تميـــم
ويحمـــي زأرهـــا أجمـــاً وغـــابـــا

ألـــم نعتـــق نســـاء بنـــي نميـــر؟
فـــلا شكـــراً جـــزيـــن ولا ثـــوابـــا

فغـــضّ الطـــرف إنـــك مـــن نميـــر
فـــلا كعبـــاً بلغـــت ولا كـــلابـــا

أتعـــدل دمنـــة خبثـــت وقلّـــت
إلـــى فـــرعيـــن قـــد كثـــرا وطـــابـــا

فيـــا عجبـــي أتـــوعـــدنـــي نميـــر
بـــراعـــي الإبـــل يحتـــرش الضبـــابـــا[3]

---

(١) حلوم: عقول، يحتقر بني نمير فينفي عنهم رجاحة العقل. ويجعل عقولهم لخفتها لا توازي وزن ذبابة.

(٢) قرماء: قرية لبني نمير.

(٣) يحترش: الاحتراش. تحريك اليد في جحر الضّب فإذا أخرج ذنبه شده به، تحقير للراعي واستهزاء ببني النمير التي هددته به مع أنه لا يتطاول إلى =

لعلـــك يـــا عبيـــد حسبـــت حـــربـــي
تقلّـــدك الأصـــرّة والعـــلابـــا[1]
إذا غضبـــت عليـــك بنـــو تميـــم
حسبـــت النـــاس كلهـــم غضـــابـــاً
ألسنـــا أكثـــر الثقليـــن رحـــلاً
ببطـــن منـــى، وأعظمـــه قبـــابـــا
لنـــا البطحـــاء تفعمهـــا الســـواقـــي
ولـــم يـــك سيـــل أوديتـــي شعـــابـــا
فمـــا أنتـــم؟ إذا عـــدلـــت قـــرومـــي
شقـــاشقهـــا وهـــافتـــت اللعبـــابـــا[2]

وراعي الإبل عبيد بن حصين النميري أحد هؤلاء الشعراء الذين أخزاهم جرير، وإذا علمنا بأن الراعي في نظر ابن سلّام[3] أحد

= مكانه.

(١) الأصرة: جمع صرار، ما يشد خلف الناقة لئلا يرضعها ولدها. العلاب: ج. علبة قدح كبير يحلب فيه.

(٢) عدلت: أمالت رؤوسها، القروم جمع قرم سمة في أنف البعير، الشقاشق: جمع شقشقة ما يخرج من فم البعير إذا هاج، هافتت اللعابا: أخرجت لعابها من أفواهها، استفهام يقصد به الازدراء، فبنو نمير دون جرير في المكانة. فشبه نقمته وهجاءه بما تلفظ الإبل من لعابها اثناء الهياج.

(٣) هو محمد بن سلّام بالتشديد بن عبيد الله الجمحي أبو عبد الله إمام في الأدب من أهل البصرة (١٥٠ ـ ٢٣٢ هـ) ألّف كتاباً في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين عني بنشره «فون جوزيف هل». كان يقول بالقدر فقال أهل الحديث: «يكتب عنه الشعر أما الحديث فلا». فهرست ابن النديم ١١٣، =

شعراء الطبقة الأولى، بعد المثلث الأموي وأن أبا زيد القرشي[1] جعله من أصحاب الملحمات، اتضح لنا مقدار رعونة جرير في الهجاء.

أما المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة فتتصل بسلسلة طويلة من أهاجي جرير منها اضطرار الفرزدق للرد على جرير دفاعاً عن قومه وكان هذا سبباً أو من أسباب تلاحم العملاقين. وكان راعي الإبل يقضي للفرزدق على جرير ويفضّله على الرغم من هجاء الفرزدق عشيرته. فلما لقيه جرير قال له: «يا أبا جندل إن قولك يستمع وإنك تفضل الفرزدق عليّ تفضيلاً قبيحاً وأنا أمدح قومك وهو يهجوهم، وهو ابن عمي ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل مني ولا منه لائمة». فسكت الراعي. ولكن جندلاً قال لأبيه غاضباً: «لا أراك واقفاً على كلب من كليب، كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً». ثم ضرب بغلة جرير بسوط كان في يده فرمحته رمحة وقعت فيها قلنسوته. فأثار جريراً تهجم جندل عليه وأقسم لينتقمن من الراعي وابنه. فجاء منزله، وجلس في علّية له، وطلب باطية من نبيذ وظل يهمهم في شبه جنون، فما جاء السحر حتى أتم القصيدة، فصاح قائلاً: «أخزيته ورب الكعبة» ثم خرج إلى المربد وألقاها على مسامع الناس، والفرزدق والراعي وابنه حضور. فلما أتى على تمامها قال الراعي لقومه: «ركابكم ركابكم،

= والوافي بالوفيات ٣/ ١١٤، الأعلام ٦/ ١٤٦.

(١) هو محمد بن أبي الخطاب القرشي أبو زيد. راوية عالم بالشعر توفي (١٧٠ هـ) صنّف جمهرة أشعار العرب. طبع باعتناء سعيد عمون اللبناني. انظر معجم المطبوعات ٣١٣ ـ الأعلام ٦/ ١١٤.

فليس لكم هنا مقام، فضحكم جرير. وأقسم بالله ما بلغه إنسيّ وإن لجرير لأشياعاً من الجن»[1].

ولسنا نجد في الهجاء الأموي تطوراً مهماً في المعاني والأخيلة والصور حتى ولا في الأسلوب إلا ما كان من شأن النقائض التي برع بها شعراء المثلث الأموي: جرير والأخطل والفرزدق.

ولقد عرف العصر الأموي أغراضاً شعرية أخرى كانت أقل انتشاراً مما ذكرنا، وأبرزها شعر الخمر واللهو والمجون الذي ينضوي جزء منه تحت الغزل الحضري وما فيه من خلع للعذار، والجزء الأكبر يتجلّى في خمريات الأخطل وكانت على شيء من الرصانة والإتزان وحسن الخلق. كما يظهر في خمريات الوليد بن يزيد[2] الذي خرج على كل وصايا الدين، وانغمس في الخمر والغناء والمجون، وانتشر صيته، بين الناس، فأحدث ذلك مشكلة سياسية لكون الوليد واحداً من الأسرة الأموية الحاكمة وولي عهد، وقد تولى الخلافة فترة قليلة وانتهى ضحية الصراع السياسي.

ولكن شيئاً جديراً بأن يقال في هذا المقام هو أن خمريات الأخطل والوليد بن يزيد قد أضفت على الشعر الخمري رونقاً بعد أن

---

(١) انظر الأغاني لأبي الفرج ٨/ ٣١.

(٢) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو العباس (٨٨ هـ ـ ١٢٦ هـ) من ملوك الدولة المروانية بالشام. يعاب بالانهماك في اللهو وسماع الغناء له شعر رقيق وعلم بالموسيقى. كان مشهوراً بالالحاد متظاهراً بالعناد. قتله أصحاب يزيد في قصر النعمان بن بشير. انظر الطبري ٨/ ٦٥، الأغاني ١/ ٢٧٤، الأعلام ٨/ ١٢٣.

كاد يدركه الفناء. وإذا كان الأخطل قد تتلمذ للأعشى، ولم يتجاوزه كثيراً في شعره الخمري، فإن الوليد قد قطع في ذلك شوطاً بعيداً وكان في خمرياته ممهداً لأبي نواس ومسلم بن الوليد وسواهما من شعراء الخمرة في الأعصر العباسية.

وهذا التمهيد إنما نعني به الانصراف إلى حياة اللهو وجعل الخمرة لذة كبرى، وعنواناً للعيش الرغيد، والربط بين الخمرة والغناء والحب والمجون وتطور الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية، وتطوير المعاني الخمرية والصور والأسلوب، بحيث أن كثيراً من شعر الوليد يشبه شعر أبي نواس حتى ليظن قارئه لأول وهلة أنه للنواسي.

أما سائر الأغراض التي كان لها نصيب ضئيل في العصر الأموي فالوصف والرثاء والحكمة، لكنها لم تنعدم كلياً وإنما كانت قليلة فقط. وهنالك نوعان شعريان لم يكونا نادرين في العصر الأموي، هما الفخر والرجز. أما الفخر: فمعظمه ورد في الشعر السياسي وفي شعر العصبيات القبلية والنقائض الهجائية والمديح.

وأما الرجز: وهو بحر من الشعر كان الشعراء يضمنونه أغانيهم الشعبية في الأفراح والحروب وغير ذلك فقد تطور حتى وقف جنباً إلى جنب مع الشعر الكلاسيكي المعروف؛ ومن أبرز شعرائه العجاج[1]

---

(١) هو عبد الله بن رؤبة العجاج راجز مجيد من الشعراء ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها ثم أسلم وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك ففلج وأقعد وهو أول من رفع الرجز وشبّهه بالقصيد وكان لا يهجو وهو والد رؤبة الراجز المشهور أيضاً. له ديوان في مجلدين (توفي سنة ٩٠ هـ). انظر الشعر =

وأبو النجم[١] ورؤبة بن العجاج[٢].

= والشعراء ١٤١، وقيل انه سمّي العجاج بقوله: حتى يعج عندها من عججعجا. وأخذ عليه قوله. انظر الأغاني ١/ ٤، الأعلام ٤/ ٨٦.

(١) هو الفضل بن قدامة العجلي أبو النجم من أكابر الرجاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر نبغ في العصر الأموي. توفي سنة (١٣٠ هـ) انظر الأغاني ١٠/ ١٥٠، الشعر والشعراء ١٤٢، الأعلام ٥/ ١٥١.

(٢) هو رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي أبو الجحاف أو أبو محمد راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات في البادية (١٤٥ هـ) وقد أسن وله ديوان رجز، وفي الوفيات: لما مات رؤبة قال الخليل: «دفنا الشعر واللغة والفصاحة». وفيات الأعيان ١/ ١٨٧، البداية والنهاية ١٠/ ٩٦، الشعر والشعراء ١٤١، الأعلام ٣/ ٣٤.

الفصل الثالث

نسبه وخبره:

قال أبو الفرج الأصبهاني في نسبه هو: الكميت بن زيد بن خنيس بن مجالد بن وهيب بن عمرو بن سبيع الأسدي أبو المستهل[1]. وقيل: هو الكميت بن زيد بن خنيس بن مجالد بن ذؤيبة بن قيس بن عمرو بن سبيع بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار[2].

ويذكر الآمدي اختلافاً آخر في نسبه ويذكره هكذا هو:

---

(١) انظر ترجمته: شرح شواهد المغني ١٣، الأغاني ٣/١٧، وجمهرة أشعار العرب ١٨٧، ومجمع الأمثال: في الكلام على مادر، والشعر والشعراء ٥٦٢، والشعر والشعراء ابن قتيبة ١٣٩ وخزانة الأدب ٦٩/١ وما بعدها، والأعلام ٢٣٣/٥، ومعجم المطبوعات ١٥٧٠.
(٢) انظر الأغاني ٣/١٧.

الكميت بن زيد بن الأخنس بن مجالد بن ربيعة بن قيس بن الحارث بن عامر بن ذؤيبة بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد[1]. وقد أسقط الآمدي اسم سبيع. وانظر خلافاً آخر في كتاب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي[2] ويحمل اسم الكميت شعراء ثلاثة من بني أسد وهم الكميت بن زيد، والكميت الأكبر بن ثعلبة بن نوفل، والكميت بن معروف بن الكميت الأكبر[3].

وقال ابن سلّام: إن الكميت بن معروف «أشعرهم قريحة»، والكميت بن زيد «أكثرهم شعراً». والظاهر أن عائلة الكميت لم تكن ذات مجد عريق، ولم يكن في أعضائها من نال قيادة أو إمارة. وإن شهرة الكميت اعتمدت على شخصيته وطموحه الفردي.

وقد عرف التاريخ جماعة من أهله ومن ذوي قرباه منهم:

ـ عمه عبد الواحد بن قيس، وهو والد زوجته حُبَّى بنت عبد الواحد وكنيتها أم المستهل، وله أخ اسمه ورد بن زيد[4]، وله من الأولاد حبيش بن الكميت والمستهل بن الكميت[5] وهو أشهرهم.

ويلمّح الجاحظ في رسائله أنه له ولد آخر اسمه عمارة وبه

---

(١) انظر المؤتلف والمختلف ٢٥٧.
(٢) انظر نهاية الأرب للقلقشندي ١٨١، رقم الترجمة (٦٤٠) بنو ثعلبة.
(٣) انظر المؤتلف والمختلف ٢٥٧، ومعجم الشعراء ٢٣٧ وما بعدها.
(٤) انظر الأغاني لأبي الفرج ١٧/ ٣٣.
(٥) المصدر السابق ١٧/ ٤٣ وله بنت اسمها ريًا ذكرها أبو الفرج ١٧/ ٤٢.

كنّاه[١] . وكان له جدتان أدركتا الجاهلية، وخاله الفرزدق كما يقول: المرزباني[٢] . وكان له مولى اسمه «صاعد»[٣] . وكان راويته محمد بن سهل[٤] .

وترك مؤرّخو الآداب أوصافاً لمظهر الكميت وشخصيته ونفسيته ويمكن أن نلخصها هنا كما وردت في الأغاني: «كان الكميت بن زيد طويلاً أصم ولم يكن حسن الصوت ولا جيد الإنشاد فكان إذا استنشد أمر ابنه المستهل فأنشد وكان فصيحاً حسن الإنشاد»[٥] .

وكان للكميت في عينيه عمش كما يظهر من كتاب زيد بن علي إليه «أخرج معنا يا أُعَيْمِش» ألست القائل:

ما أبالي إذا حفظت أبا القا
سم فيكم ملامة اللوّام[٦]

وأكَّد صممه ابن فارس في مقاييس اللغة. قال: «الأصلخ: الاسم - كان الكميت أصم أصلخ»[٧] . وذكره الثعالبي في الصم كذلك[٨] وذكر المرزباني أنه كان

(١) انظر رسائل الجاحظ ٢/١٣٦ .
(٢) انظر أخبار شعراء الشيعة للمرزباني ٦٥ .
(٣) انظر الأغاني ١٧/٣٩.
(٤) المصدر السابق ١٧/٤ .
(٥) انظر المصدر السابق ١٧/٣٨.
(٦) المصدر السابق ١٧/٣٦.
(٧) انظر مقاييس اللغة ٣/ ٣٠٣ «صلخ».
(٨) انظر لطائف المعارف ١٠٦ .

أحمر[1]. ويبدو أنه استنتج من وصفه بأنه أحمر وبأنه أعمش أن شعره كان أبيض كلون شعور الذين يكونون بيض البشرة عمش العيون. ولم يترك المؤرخون وصفاً لشعره لأنه لم يكن ليبدو من تحت عمامته أو لباس الرأس الذي كان يلبسه.

حياته ونشأته:

ولد الكميت بالكوفة سنة ٦٠ هـ وكانت الكوفة عاصمة العراق، في السنة التي مات فيها معاوية، وقد ذكر أبو الفرج في السنة التي قتل فيها الحسين بن علي بن أبي طالب[2]، والمعروف أن الحسين بن علي قتل في سنة (٦١ هـ) أي بعد ولادة الكميت بسنة واحدة[3]، وكان عمر الكميت ستاً وعشرين سنة حين مات عبد الملك، واستخلف الوليد عام (٨٦ هـ) وكان عمره ستاً وأربعين سنة حين استخلف هشام عام (١٠٥ هـ).

والجدير بالذكر أن الكوفة في تلك الحقبة كانت مركز إقامة حكّام العراق وكانت تسامي دمشق عاصمة الدولة في العظمة والاتساع، وتسمو عليها، من الناحية العلمية والأدبية، حتى ملوك بني مروان يرجعون إلى علماء العراق فيما يشكل عليهم من مسائل العلم والأدب. وكانت الكوفة مهداً للتشيع، كما كانت دمشق مهداً للتشيع

---

(١) انظر معجم شعراء الشيعة ٢٧٨.
(٢) انظر الأغاني ١٧/ ٤٢.
(٣) انظر المنتظم ٥/ ٣٣٥، وشذرات الذهب ١/ ٦٦، والكامل في التاريخ ٣/ ٤٢٨.

الأموي، فلما قام معاوية بالشام يناوىء علي بن أبي طالب، انضم أهل العراق إلى عليّ فيما قام بينهما من حروب واستمروا على تشيّعهم بعدما صار الحكم إلى الأمويين.

وهنا يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدي: «وإني أرى أن هذا الخلاف السياسي بين العراق والشام ليس إلا أثراً لما كان بينهما من الخلاف في الجاهلية، إذ كان يقوم بالعراق دولة المناذرة، ويقوم بالشام دولة الغسانيين، وكان بينهما من الخلاف السياسي ما هو معلوم، ولعل علياً لم يترك المدينة إلى الكوفة إلا ليضم بذلك أهل العراق إليه، لما يعود عليهم من المصلحة بانتقال العاصمة الإسلامية إلى الكوفة، وقد كان في العراق من الرجال والخصب ما يضاهي الشام، فأراد أن يستعين بذلك في حروبه لمعاوية، ويستغل ذلك الخلاف القديم بين العراق والشام في تأييد خلافته، ولو أنه بقي في الحجاز لم يجد فيه من الحاقدين على بني أمية ما وجده في العراق»[1].

وقد نشأ الكميت بالكوفة وهي في هذه الحالة التي صارت إليها في العلم والسياسة وكان قومه بها من بني أسد، فأخذ على علمائها علوم الدين والأدب، وكانت جدتاه تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية.

فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه، فاجتمع له

---

(١) انظر كتاب الكميت بن زيد شاعر العصر المرواني لعبد المتعال الصعيدي ١٦/ وما بعدها.

بذلك ثقافتا الإسلام والجاهلية، وذوقا أهل الحضر والبادية، وحصل من ذلك كله على علم غزير بلغات العرب وغريبها، وأشعارها وأيامها ومفاخرها ومثالبها، وألمّ بعلوم الإسلام كالحديث وغيره[1] .

ولم يقتصر الكميت في ذلك على دراسة العلم والأدب، بل كان يأخذ نفسه بقرض الشعر، ويجلس إلى الشعراء يستمع إليهم، ولكن اشتغاله بالعلم والأدب في نشأته، كان أكثر من اشتغاله بقرض الشعر.

وما زال بنو أسد بالكميت حتى صرفوه إلى قرض الشعر، فتفرغ له حتى وصل فيه إلى درجة الإجادة، وكان يتشيع لأهل البيت مثل أهل الكوفة، ولم يكن للشيعة يومذاك شاعر ينافح عنها ويؤيد دعوتها، وكان أكثر الشعراء يتملقون بني مروان طمعاً في صلاتهم وجوائزهم، فاختار الكميت لنفسه أن يكون شاعر شيعة بني هاشم، واختصهم بمدحه وحارب اعداءهم من بني مروان وهجاهم بشعره، وقام في ذلك بما لم يقم به غيره ممن كان يتعصب للشيعة.

وقد اشتغل الكميت بالتعليم الذي كان يغلب على ميله، فكان يعلّم الصبيان بمسجد الكوفة، ولكن قومه بالكوفة كانوا يعرفون أنه يقول الشعر وكانوا يريدون أن يكون لهم شاعر بالكوفة يدافع عنهم وينشر مفاخرهم. وأخذ بنو أسد يرغبون الكميت في قرض الشعر ويلحون عليه في الانصراف إليه والتفرغ له.

ومما يروى في ذلك أن عمه وكان رئيس قومه أخذ الكميت

---

(١) انظر الأغاني ٣/١٧.

يوماً، فقال له يا كميت، لم لا تقول الشعر؟ ثم أخذه فأدخله الماء، وقال: لا أخرجك منه أو تقول الشعر. فمرت به قنبرة فأنشد متمثلاً:

يـــا لـــك مـــن قنبـــرة بمعمـــر
خـــلا لـــك الجـــو فبيضـــي واصفـــري
ونقّري ما شئت أن تنقّري[1]

فقال له عمه ورحمه: قد قلت شعراً، فاخرج. فقال الكميت لا أخرج أو أقول لنفسي. فما رام حتى عمل قصيدته المشهورة، وهي أول شعره، ثم غدا على عمه، فقال له: اجمع لي العشيرة ليسمعوا، فجمعهم له، فأنشد:

طـــربـــت ومـــا شـــوقـــاً إلـــى البيـــض أطـــرب
ولا لعبـــاً منـــي وذو الشـــوق يلعـــب

وقد ذهب الأستاذ زكي مبارك: «إلى أن هذه القصة غير صحيحة، لأنه ليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره، لما فيها من القوة الدّالة على أنها ليست بداية شعرية، وإنما هي صرخة شاعر طال منه الصيال»[2].

وهنا يقول عبد المتعال الصعيدي: «ولا وجه عندي للطعن في هذه القصة من هذه الناحية، لأن هذه القصيدة وردت فيها من

---

(١) هذا من شعر طرفة بن العبد.
(٢) انظر النثر الفني لزكي مبارك ١/ ١١٧.

هاشميات الكميت، وقد ثبت من غير طريق هذه القصة أن هاشمياته على العموم وهذه القصيدة على الخصوص كانت أول ما قاله من الشعر، [فقد شهد له الفرزدق أحسن شهادة في هاشمياته، واعترف بأنه سنّ بها سنة جديدة في الشعر وسلك مسلكاً جديداً لم يسلكه أحد من الشعراء، وذلك حينما قيل له: أحسن الكميت في مدائحه في تلك الهاشميات!؟ فقال: وجد آجراً وجصاً فبنى، وقال أبو الفرج الأصبهاني: أخبرني الحسن بن علي الخفاف، قال حدثنا الحسن بن عليل العنزي، قال حدثني أحمد بن بكير، قال حدثني محمد بن أنس السلامي، قال حدثني محمد بن سهل راوية الكميت، قال: جاء الكميت إلى الفرزدق لما قدم الكوفة، فقال له: إني قلت شيئاً فاسمعه مني يا أبا فراس قال: هاته. فأنشده قوله:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطربُ
ولا لعباً مني وذو الشوق يلعب
ولكن إلى أهل الفضائل والتقى
وخير بني حواء والخير يطلب

فقال له: قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنت الطرب إليه[1].

وفي رواية أخرى لأبي الفرج عن محمد بن علي النوفلي، قال

---

(١) انظر الأغاني ١٧/ ٣٠.

سمعت أبي يقول: لما قال الكميت بن زيد الشعر، كان أول ما قاله الهاشميات فسترها، ثم أتى الفرزدق بن غالب فقال له: يا أبا فراس، إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدي، قال له: صدقت أنت ابن أخي فما حاجتك؟ قال: نفث على لساني فقلت شعراً، فأحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره وكنت أولى من ستره عليّ. فقال له الفرزدق: أما عقلك فحسن، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدني ما قلت. فأنشده:

طـرب ومـا شـوقـاً إلـى البيـض أطـرب

قال فقال لي: فيم تطرب يا ابن أخي؟ فقال:

ولا لعبــــاً منـــــي وذو الشـــــوق يلعــــب

فقال: بلى يا ابن أخي، فالعب فإنك في أوان اللعب فقال:

ولـــــم يلهنـــــــي ولا رســــــم منـــــزل
ولـــــم يتطـــــربنـــــي بنـــــان مخضـــــب

فقال: ما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

ولا الســــانحــــات البـــــارحـــــات عشيـــــةً
أمـــــرَّ سليــــم القـــــرن أم مـــــرَّ اعضـــــب

فقال: أجل لا تتطير، فقال:

ولكـــن إلـــى أهـــل الفضـــائـــل والتقـــى
وخيـــر بنـــي حـــواء والخيـــر يطلـــب

فقال: ومن هؤلاء ويحك؟ فقال:

إلـــى النفـــر البيـــض الـــذيـــن بحبهـــم
إلـــى الله فيمـــا نـــابنـــي اتقـــرَّب

قال: أرحني ويحك! ومن هؤلاء؟ قال:

بنـــي هـــاشـــم رهـــط النبـــي فـــإننـــي
بهـــم ولهـــم أرضـــى مـــراراً وأغضـــب
خفضـــت لهـــم منـــي جنـــاحـــي مـــودة
إلـــى كنـــف عطفـــاه أهـــل ومـــرحـــب
وكنـــت لهـــم مـــن هـــؤلاء وهـــؤلاء
مجنـــاً علـــى أنـــي أذمُ وأقصـــب[1]
وأرمـــى وأرمـــي بـــالعـــداوة أهلهـــا
وإنـــي لأُوذَى فيهـــمُ وأؤنَّـــبُ

فقال له الفرزدق: يا ابن أخي، أذع، ثم أذع: فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقي[2].

فهذه شهادة الفرزدق لتلك الهاشميات التي قالها الكميت والحق

---

(١) قصبه: عابه وشتمه.
(٢) انظر الأغاني ١٧/٣١.

أنها من أعظم الدرر اللوامع في الشعر العربي، وأن شعر الكميت يسمو بها على شعر غيره من شعراء عصره، وقد أجاد فيها مدح بني هاشم وأحسن فيها الدعاية لهم وصور حكم بني مروان أشنع تصوير، فألهب بها النفوس إلهاباً، وأيقظها من غفلتها إيقاظاً، حتى هبّت للثورة عليه، وانتهى بها الأمر إلى تقويض ذلك الحكم، وإقامة الدولة العباسية من بني هاشم. فكان شعر الكميت هو الطليعة لتلك الثورة، وهو الذي هيّأ النفوس لها، وجعلها تستهين بالموت فيها.

ولا شك أن الشعر الذي يصل تأثيره إلى هذه الدرجة ويستطيع به صاحبه أن يقعد دولة ويقيم دولة، لهو الشعر الذي يستحق صاحبه الزعامة به على شعراء عصره، لا ذلك الشعر الذي لا يعدو أمره أن يكون ألفاظاً جوفاء لا طائل تحتها، ولا ثمرة في هذه الحياة لها، ولا تهز الممالك كما هزّها شعر الكميت].

ولا شك أنه لا يراد من هذا إلا أن الهاشميات كانت أول ما قاله من الشعر الجيد، وهذا لا يمنع أن يكون له شعر قبلها وأنه ما زال يجيد فيه من نفسه أو بتأثير قومه حتى وصل إلى درجة هذا الشعر الجيد، ولعل فعل عمه معه كان لحمله علي توجيه شعره إلى تأييد دعوة بني هاشم، ثم حرّف ذلك التحريف.

ومما يؤكد هذا ما ذكره السيوطي في شرح شواهد المغني، فقد ذكر: أن الكميت كان يفد على يزيد بن عبد الملك، وهو لم يقل الهاشميات إلا في عهد أخيه هشام. وكذلك ما ذكره الشريشي في شرح مقامات الحريري فقد ذكر أن الكميت قدم المدينة على

عبد الله بن الحسين[1] ، فأنشده هاشمياته، وكان هذا بعد أن أذن له الفرزدق في إذاعتها، فعرض عليه عبد الله ضيعة له، فقال له الكميت: «بأبي أنت وأمي، كنت أقول الشعر لغيركم أريد به الدنيا والمال، ولا والله ما قلت فيكم شيئاً إلا لله، وما كنت لآخذ في شيء جعلته لله ثمناً»[2] .

وقد أراد أصحاب الثراء من بني هاشم أن يثيبوه على ما يقوم به من انشاء تلك القصائد الطوال في مدحهم والإشادة بذكرهم والدفاع عنهم وتأييد دعوتهم، فكان يعتذر إليهم عن قبول ما يعرضونه عليه، ويذكر لهم أنه يريد من ذلك وجه الله تعالى.

حدّث صاعد مولى الكميت قال: دخلنا على أبي جعفر محمد بن عليّ، فأنشده الكميت قصيدته التي أوّلها:

مـــــن لقلـــــب متيـــــمٍ مستهـــــام. . .

فأمر له بمال وثياب، فقال الكميت: والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه، ولكنني أحببتكم للآخرة، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتها، وأما المال فلا أقبله فرده وقبل الثياب فقال: اللهم اغفر للكميت، اللهم اغفر للكميت[3] . وحدّث أيضاً فقال: دخلنا على فاطمة بنت الحسين، فقالت: هذا شاعرنا أهل البيت، وجاءت بقدح فيه

---

(١) هكذا ورد في شرح المقامات للشريشي والصواب الحسن.
(٢) انظر شرح مقامات الحريري للشريشي.
وانظر أيضاً الكميت بن زيد لعبد المتعال الصعيدي ١٩/ وما بعدها.
(٣) انظر الأغاني ١٧/ ٢٧.

سويق[1] فحركته بيدها وسقت الكميت فشربه. ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب، فهملت عيناه، وقال: لا والله لا أقبلها، إني لم أحبكم للدنيا[2].

وحدّث محمد بن سهل صاحب الكميت، قال: دخلت مع الكميت على أبي عبد الله جعفر بن محمد في أيام التشريق، فقال له: جعلت فداك ألا أنشدك؟ فقال: إنها أيام عظام. قال: إنها فيكم. قال: هات. وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب، فأنشده، فكثر البكاء، حتى أتى على هذا البيت:

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم
فيا آخراً أسدَى له الغيَّ أوَّل

فرفع أبو عبد الله يديه، وقال: اللهم اغفر للكميت ما قدّم وما أخّر، وما أسرَّ وما أعلن، واعطه حتى يرضى[3].

خصائصه النفسية:

وأما عن خصائصه النفسية فينقل الزجاجي: «أنه كان في الكميت

---

(١) السويق: ما يتخذ من الحنطة والشعير. ويقال: السويق المقل الحتي والسويق السبق الفتي والسويق الخمر، وسويق الكرم الخمر انظر اللسان مادة سوق ٢٠/ ١٧٠.

(٢) انظر الأغاني ١٧/ ٢٧ وما بعدها.

(٣) راجع كتاب الأغاني ١٧/ ٣٣.

حسد»[1]. وكان الكميت كثير الاعتزاز بنفسه وبنسبه وكان يرى نفسه لا يقل فضلاً عن قريش. «خطب رجل إلى الكميت، فظل يفتخر عليه، ويذكر فضل قريش وأكثر من ذلك. فقال له الكميت: يا هذا إن أنكحناك لم تبلغ السماء وإن رددناك لم تبلغ الماء وقد رددناك»[2].

وكان الكميت ذكياً وقد أظهر قابليته على الردود المسكتة في سن مبكرة فقد ورد عن الفرزدق ما يلي:

«إني كنت أنشد بجامع البصرة وفي حلقتي الكميت بن زيد وهو صبي فأعجبني حسن استماعه، فقلت له كيف سمعت يا بني؟

قال: حسن.

قلت: فيسرك اني أبوك؟

قال: أما أبي فلا أريد به بديلاً ولكني وددت أن تكون أمي!

قلت: استرها عليَّ يا ابن أخي»[3].

وذكر عنه مثل هذا النشاط الذهني في رجولته. قال الزجاجي: «شهد الكميت الجمعة بمسجد الجامع فأحاط به علماء أهل الكوفة فيهم حماد والطرماح فجعلوا يسألون فكان لا يسأل عن حرف إلا كان كأنه ممثل بين عينيه فقال: ألا ألقي عليكم بيتاً. فقلنا: افعل يا أبا المستهل...»[4].

---

(١) انظر كتاب أمالي الزجاجي ٣٧.

(٢) انظر كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي [قسم]/ (١٨٥).

(٣) انظر العقد الفريد ٤/ ٥٢، والأغاني ١٧/ ٢٦.

(٤) انظر كتاب مجالس العلماء ٢١٦.

ويبدو أنه كان يروي لعدد كبير من الشعراء القدامى والمحدثين وكان يروي لمعاصريه فقد جاء في أمالي اليزيدي:

«اجتمع الكميت والنصيب في حمام فقال الكميت للنصيب أنشدني قصيدتك:

بـــزينـــب ألمـــم قبـــل أن يـــرحـــل الـــركـــب
وقـــل إن تملينـــا فمـــا ملـــك القلـــب

قال: والله ما أحفظها.

قال الكميت: ولكني أحفظها أفأنشدك إياها؟

قال: نعم فابتدأ الكميت ينشده وهو يبكي»[1].

ومما يدل على حياته الاجتماعية والاقتصادية المتواضعة تعليمه الصبيان في مسجد الكوفة[2]. وعن خلف: انه رأى الكميت يعلم الصبيان في مسجد الكوفة[3]. وذكره التوحيدي كأحد المعلمين الذين اشتهروا في العصر الأموي مثل الضحاك بن مزاحم وعطاء بن أبي رباح وعبد الحميد بن يحيى والحجاج بن يوسف وغيرهم[4].

وذكره الجاحظ في الخطباء الشعراء. وقال عنه في مكان آخر: «قال الكميت ـ وكان خطيباً ـ أن للخطبة صعداء وهي على ذي

---

(١) انظر كتاب الأمالي لليزيدي ٨٠ وفي أمالي القالي قال جرير: وددت أني سبقت ابن السوداء يعني نصيباً إلى هذه الأبيات. ٢/١٩٦.

(٢) انظر كتاب فحولة الشعراء ٤٩.

(٣) انظر الأغاني ١٧/ ٢٤ وما بعدها.

(٤) انظر البصائر والذخائر ١/ قسم ٢/ ٤٤.

اللب أرمن»[1].

علاقة الكميت بالدولة الأموية:

كان الكميت حين ولي عبد الملك طفلاً عمره خمس سنوات فراهق وشبّ في خلافته وكان عمره ستاً وعشرين سنة عند موته فهو دون شك قد قال الشعر في خلافته وقد مدحه ومدح عدداً من ولاة بني أمية وخلفائهم الذين تلوا عبد الملك، إلا أننا لا نجد له شيئاً في الوليد بن عبد الملك ولا في الحجاج بن يوسف (توفي ٩٥ هـ) ويبدو أنه لم يدخل بعد غمار الأحداث ولم يحن الدور الذي مثله على مسرح المجتمع الكوفي في خلافة هشام وفي ولاية خالد بن عبد الله القسري[2] إلا أن من بين الذين مدحهم من يحتمل أنه ظهر قبل خالد القسري على المسرح السياسي. فقد مدح:

زياد بن مغفل الأسدي والحكم بن الصلت الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي ومخلد بن يزيد بن المهلب وأبان بن عبد الله البجلي. ويزيد بن المهلب. وعبد الرحمٰن بن عنبسة بن سعيد بن العاص بن أمية ومسلمة بن عبد الملك.

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ١٣٤.

(٢) هو خالد بن عبد الله القسري: (توفي سنة ١٢٦ هـ) وهو من بجيلة أبو الهيثم: أمير العراقين وأحد خطباء العرب وأجوادهم يماني الأصل وليّ مكة للوليد بن عبد الملك ثم ولاه هشام العراقين فاقام بالكوفة. عزله هشام سنة (١٢٠ هـ) وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي الذي سجنه وعذّبه ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد. الأعلام ٢/ ٢٩٧.

ومدح من خلفاء بني أمية:

عبد الملك بن مروان، وهاشم بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك ورثى معاوية بن هشام بن عبد الملك، ومدح أيضاً يوسف بن عمر بعد أن قتل زيداً ومدح خالد بن عبدالله القسري. وهجا عبد الله البجلي والعريان بن الهيثم ـ وكان على شرط الحجاج ـ فما هي الدوافع التي دفعت بالكميت إلى خوض غمار السياسة؟ وما دفعه لنظم الهاشميات وتعرضه لذلك السجن والتشريد والعذاب؟

يبدو أن الكميت قد أظهر في مدائحه وأهاجيه التي سبقت فترة نظم الهاشميات ميلاً إلى العصبية القبلية واستعداداً لهذا النوع من الهجاء، ونجد في شعره نصوصاً كثيرة مليئة باللوم والتشريب لقبائل رأت أن تتحول بنسبها عن المضرية إلى اليمانية لأسباب تعتمد على المصلحة والمنفعة البحتة.

وكان هذا النشاط الفني في هذا الاتجاه قد سلّط الأضواء عليه وساعد على الاستفادة من مقدرته في هذا الباب وكان الوضع السياسي في أواسط وأواخر العصر الأموي كما يلي:

١ ـ الكتلة الأموية: وبيدها مقاليد الأمور وأزمة المال وهي تقبض بيد من حديد على مصالح المسلمين.

٢ ـ الكتلة العلوية: وقد غيّرت موقفها من الخلافة تغييراً جذرياً بعد معركة كربلاء.

٣ ـ الكتلة العباسية: وهي التي ابتدأت عام (١١١ هـ) تعمل بشكل سري للحصول على السلطة.

٤ - الكتلة اليمانية: وقد بدأ بعض أبنائها ينبغون ووصلوا إلى مستوى القيادة.

في ظل هذه الأجواء فقد شاع أمر الهاشميات التي قالها الكميت في مدح آل البيت، والطعن في ملك بني مروان، وتأليب الناس عليهم، ولهج بها العامة والخاصة، حتى صاروا يعدون حفظها وإنشادها [قربة وطاعة إلى الله تعالى]. وتناقلوا في ذلك أحاديث ورؤى عن النبي ﷺ، فارتفعت بذلك منزلة الكميت، وصار قومه بنو أسد يعدونه من مفاخرهم. ويقولون: «فينا فضيلة ليست في العالم - ليس منزل منا إلا وفيه بركة وراثة الكميت - لأنه رأى النبي ﷺ فقال له أنشدني:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب

فأنشده، فقال له: بوركت وبورك قومك...!!

ويروى أيضاً من طريق آخر أن الكميت رأى النبي ﷺ في نومه وهو [على زعمه] مختفٍ من بني مروان فقال له النبي: مم خوفك؟ فقال: يا رسول الله من بني أمية، وأنشده:

ألم ترني من حب آل محمد
أروح وأغدو خائفاً أترقب

فقال له النبي ﷺ: «اظهر فإن الله قد أمنك في الدنيا والآخرة!!».

وحدّث إبراهيم بن سعد الأسدي، قال: سمعت أبي يقول: رأيت

رسول الله في النوم، فقال: من أي الناس أنت؟ قلت من بني أسد. قال: من أسد بن خزيمة؟ قلت: نعم. قال: أهلاً لي أنت؟ قلت: نعم. قال: أتعرف الكميت بن زيد؟ قلت: يا رسول الله عمي ومن قبيلتي. قال: أتحفظ من شعره شيئاً؟ قلت: نعم. قال أنشدني: طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب.

قال: فأنشدته حتى وصلت إلى قوله:

فمـــا لـــي إلا آل أحمـــد شيعـــة

ومـــا لـــي إلا مشعـــب الحـــق مشعـــب

فقال لي: إذا أصبحت فاقرأ عليه السلام. وقل له: قد غفر الله لك بهذه القصيدة!!

وحدث نصر بن مزاحم المنقري أنه رأى النبي ﷺ في النوم ورجل بين يديه ينشده:

مـــن لقـــب متيـــم مستهـــام

قال: فسألت عنه، فقيل لي: هذا الكميت بن زيد الأسدي. قال: فجعل رسول الله ﷺ يقول: جزاك الله خيراً. وأثنى عليه.

وستجد عزيزي القارىء أن هذه ما هي إلا خرافات أشاعها الحزب السري العباسي للترويج للثورة كما سيأتي بيان هذه الفترة بعد هذا الفصل، على أن الكميت كان يكتفي بهذا البلاء الحسن في نصر آل البيت بشعره ولم يكن يتجاوز تأييدهم باللسان، إلى تأييدهم بالسنان، وكان شأنه في هذا شأن القعدة من الخوارج، مثل عمران بن

حطان الشاعر الخارجي. ولا غرابة في أن يكون للشيعة قعدة أيضاً، لأن مذهب الشيعة يقبل القعود أكثر مما يقبله مذهب الخوارج، لأن الخوارج كانوا يتشددون في مذهبهم غاية التشدد، أما الشيعة فكانوا يقبلون التقية في التشيّع، والتقية أدنى مرتبة من القعـود، لذلك روى أبو الفرج الأصبهاني أنه لما خرج زيد بن علي بن الحسين على بني مروان، كتب إلى الكميت: أخرج معنا يا أعيمش، ألست القائل:

مـــا أبـــالـــي إذا حفظـــت أبـــا القـــا
ســـم فيكـــم مـــلامـــة اللـــوّام

فكتب إليه الكميت:

تجـــود لكـــم نفســـي بمـــا دون وثبـــة
تظـــل لهـــا الغـــربـــان حـــولـــي تحجـــل

ولم يكن قعود الكميت عن القتال مع آل البيت عند خروجهم على بني مروان مما يغضبهم، لأنهم كانوا يكتفون منه بتلك الدعاية الشعرية العظيمة، ويأذنون له في التخلف عنهم، ليستمر في تلك الدعاية التي كانت تعمل ما لا تعمله السيوف في هدم بني مروان.

الكميت وخالد بن عبد الله:

قد ظهر الكميت بتلك الدعايات وعلى العراق خالد بن عبد الله القسري، وعلى عرش بني مروان هشام بن عبد الملك، وكان لا بدّ أن يصل الخبر عن تلك القصائد المسمّات «الهاشميات» وهنا تضطرب الروايات في منافرته لخالد بعدها، في كيفية وصولها إليهما.

وسنذكر الآن هذه الروايات المضطربة، ثم نأخذ بعد هذا في الترجيح بينها ونقدها.

الرواية الأولى: قال أبو الفرج: كان خالد بن عبد الله القسري فيما حدّثني به عيسى بن الحسين الورّاق، قال أخبرنا أحمد بن الحارث الفزاري، عن ابن الأعرابي. وذكره محمد بن أنس السلاّمي، عن المستهل بن الكميت وذكره ابن كناسة عن جماعة من بني أسد، أن الكميت أنشد قصيدته التي يهجو فيها اليمن، وهي:

ألا حيئيتِ عنا يا مدينا

فأحفظته عليه، فروى جارية حسناء قصائده الهاشميات، وأعدّها ليهديها إلى هشام، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بني أمية، وأنفذ إليه قصيدته التي يقول فيها:

فيا رب هل إلا بك النصر يُرتجى
ويا رب هل إلا عليك المعول

وهي قصيدة طويلة يرثي فيها زيد بن عليّ وابنه الحسين بن زيد[1] ويمدح بني هاشم.

فلما قرأها هشام أكبرها واستنكرها وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده، فلم يشعر الكميت إلا والخيل محدقة بداره فأخذ وحبس في المحبس، وكان أبان بن الوليد عاملاً على

(١) الصواب يحيى بن زيد، ولم نجد في هذه القصيدة ولا غيرها ذكراً لهما.

واسط، وكان الكميت صديقه، فبعث إليه بغلام على بغل، وقال له: أنت حر إن لحقته والبغل لك، وكتب إليه:

قد بلغني ما صرت إليه، وهو القتل إلا أن يدفع الله عزّ وجل، وأرى لك أن تبعث إلى حبّى - يعني زوجة الكميت وهي بنت نكيف بن عبد الواحد، وهي ممن يتشيع أيضاً - فإذا دخلت إليك تنقبت نقابها، ولبست ثيابها، وخرجت، فإني أرجو ألاّ يؤبه لك.

فأرسل الكميت إلى أبي وضّاح حبيب بن بديل، وإلى فتيان من بني عمه من مالك بن سعيد، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر، وشاوره فيه، فسدد رأيه، ثم بعث إلى حبّى امرأته، فقصَّ عليها القصة، وقال لها: أي ابنة عم إن الوالي لا يقدم عليك، ولا يسلمك قومك، ولو خفته عليك لما عرضتك له، فألبسته ثيابها وإزارها وخمرته، وقالت له: أقبل وأدبر، ففعل فقالت: ما أنكر منك شيئاً إلا يبساً في كتفك فاخرج على اسم الله، وأخرجت معه جارية لها، فخرج، وعلى باب المحبس أبو وضّاح ومعه فتيان من أسد فلم يؤبه له ومشى الفتيان بين يديه إلى سكة شبيب بناحية الكناس، فمر بمجلس من مجالس بني تميم، فقال بعضهم: رجل ورب الكعبة، فأمر غلامه فاتبعه، فصاح به أبو وضّاح: يا كذا وكذا، لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم. وأومأ إليه بنعله، فولّى العبد مدبراً، وأدخله أبو وضّاح منزله.

ولما طال على السجّان الأمر، نادى الكميت فلم يجبه، فدخل ليعرف خبره، فصاحت به المرأة وراءك لا أم لك، فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد، فأخبره الخبر، فأحضر حبى، فقال لها: يا عدوة الله احتلت على أمير المؤمنين، وأخرجت عدوه، لأمثلن بك،

ولأصنعن ولأفعلن. فاجتمعت بنو أسد إليه، وقالوا: ما سبيلك على امرأة منا خدعت؟ فخافهم فخلى سبيلها.

قال: وسقط غراب على الحائط فنعب. فقال الكميت لأبي وضّاح: إني لمأخوذ وإن حائطك لساقط. فقال له: سبحان الله؟ هذا ما لا يكون إن شاء الله، فقال له: لا بد أن تحولني. فخرج به إلى بني علقمة، وكانوا يتشيعون فأقام فيهم، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب.

هربه إلى الشام:

قال ابن الأعرابي، قال المستهل: وأقام الكميت مدة متوارياً، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه، خرج ليلاً في جماعة من بني أسد، على خوف ووجل، وفيمن معه صاعد غلامه، فأخذ الطريق على القطقطانة، وكان عالماً بالنجوم مهتدياً بها، فلما صار سحيراً صاح بنا: هوموا يا فتيان. فهومنا، وقام يصلي، قال المستهل: فرأيت شخصاً فتضعضعت له، فقال: ما لك؟ قلت: أرى شيئاً مقبلاً. فنظر إليه، فقال: هذا ذئب، قد جاء يستعطفكم. فجاء الذئب فربض ناحية، فأطعمناه يد جزور، فتعرقها، ثم أهوينا بإناء فيه ماء فشرب منه، وارتحلنا، فجعل الذئب يعوي فقال الكميت: ما له ويله؟ ألم نطعمه ونسقه، وما أعرفني بما يريد؟ هو يعلمنا أنا لسنا على الطريق تيامنوا يا فتيان. فتيامنا. فسكن عواؤه فلم نزل نسير حتى جئنا الشام، فتوارى في بني أسد وبني تميم وأرسل إلى أشراف قريش، وكان سيدهم يومئذ عنبسة بن سعيد بن العاص. فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض، وأتوا عنبسة فقالوا: يا أبا خالد، هذه مكرمة قد

أتاك الله بها. هذا الكميت بن زيد لسان مضر. وكان أمير المؤمنين كتب في قتله، فنجا حتى تخلص إليك وإلينا. قال: فمروه أن يعوذ بقبر معاوية بن هشام بدير حنيناء، فمضى الكميت فضرب فسطاطه عند قبره، ومضى عنبسة فأتى مسلمة بن هشام، فقال له: يا أبا شاكر، مكرمة أتتك، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها، فإن علمت أنك تفي بها، وإلا كتمتها. قال: وما هي؟ فأخبره الخبر، وقال: إنه قد مدحكم عامة، وإياك خاصة، بما لم يسمع بمثله، فقال عليّ خلاصه. فدخل على أبيه هشام، وهو عند أمه، في غير وقت دخول، فقال له هشام: أجئت لحاجة؟ قال: نعم. قال: هي مقضية إلا أن يكون الكميت. فقال: ما أحب أن تستثني عليّ في حاجتي، وما أنا والكميت؟ فقالت أمه: والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت. قال: قد قضيتها، ولو أحاطت بما بين قطريها. قال: هي الكميت يا أمير المؤمنين. وهو آمن بأمان الله عزّ وجل، وأماني وهو شاعر مضر، وقد قال فينا قولاً لم يقل. قال: قد أمنته، وأجزت أمانك له، فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا. فقعد له، وعنده الأبرش الكلبي، فتكلم بخطبة ارتجلها، ما سمع بمثلها قط، ومدحه بقصيدته الرائية، ويقال إنه ارتجلها ارتجالاً وهي قوله:

قف بالديار وقوف زائر

فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله:

ماذا عليك من الوقو ... ف بها وإنك غير صاغر

درجت عليك الغاديا ... ت الرائحات من الأعاصر

وفيها يقول:

فـــــالآن صـــــــرت إلـــــى أميّـ
ـــــة والأمـــور إلـــى المصـــايـــر

وجعل هشام يغمز مسلمة بقضيب في يده، فيقول: اسمع، اسمع. ثم استأذنه في مرثية ابنه معاوية، فأذن له، فأنشده:

ســـأبكيــك للــدنيـــا وللـــديــن إننــي
رأيـــت يـــد المعــــروف بعـــدك شُلـــت

أدامـــت عليـــك بـــالســـلام تحيـــة
مـــلائكـــة الله الكـــرام وصلـــت

فبكى هشام بكاءاً شديداً، فوثب الحاجب فسكته، ثم جاء الكميت إلى منزله آمناً، فحشدت له المضرية بالهدايا، وأمر له مسلمة بعشرين ألف درهم، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم. وكتب إلى خالد بأمانه، وأمان أهل بيته، وأنه لا سلطان له عليهم، وجمعت له بنو أمية فيما بينها مالاً كثيراً ثم ودّع هشاماً، وأنشده قوله فيه:

ذكـــر القلـــب إلفـــه المـــذكـــورا
وتـــلافـــى مـــن الشبـــاب أخيـــرا

وهذه أولى الروايات فيما كان من المنافرة بين الكميت وخالد بن

عبد الله القسري وفيما انتهى إليه أمره مع بني مروان بسبب قصائده الهاشميات.

الرواية الثانية: وأما في هذه الرواية فإن سبب المنافرة بين الكميت وخالد، فقد نقلها أبو الفرج من كتاب محمد بن يحيى الخراز، قال حدّثني أحمد بن إبراهيم الحاسب قال حدّثني عبد الرحمٰن بن داوود بن أبي أمية البلخي، قال: كان حكيم بن عيّاش الأعور الكلبي ولعاً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تجيبه ويجيبهم، وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم. قالوا: فأجب الرجل، قال: إن خالداً بن عبد الله محسن إلي، فلا أقدر أن أردّ عليه. قالوا: فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء. فأنشدوه ذلك فحمي الكميت لعشيرته فقال المذهبة:

ألا حُييــــت عنَّــــا يـــا مـــدينــــا

فأحسن فيها، وبلغ خالداً خبرها، فقال: لا أبالي ما لم يجر لعشيرتي ذكر. فأنشدوه قوله:

ومـــــن عجـــــب علـــــيّ لعمـــــرُ أم
غـــــذَتـــــك وغيـــــر هـــــاتيَـــــا يمينـــــا

تجـــــاوزت الميـــــاه بـــــلا دليـــــل
ولا علـــــم تعســـــف مخطئينـــــا

فـــــإنـــــك والتحـــــول مـــــن معـــــدّ
كهيلـــــة قبلنـــــا والحـــــالبينـــــا

تخـــطَّـــت خيـــرهـــــم حـــلبـــاً ونسئـــــاً
إلـــى المـــولـــى المغـــادر هـــاربينـــا[1]
كعنـــــز الســــوء تنطـــــح عـــــالفيهـــا
وتـــــرميهـــــا عِصُـــــي الـــــذابحينـــا

فبلغ ذلك خالداً، فقال: فعلها! والله لأقتلنه. ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيرهن نهاية في الحسن والكمال والأدب فرواهن الهاشميات، ودسّهن إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً، فلما أنس بهن استنطقهن، فرأى فصاحة وأدباً فاستقرأهن القرآن فقرأن، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن، من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي. قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق، ثم بالكوفة.

فكتب إلى خالد: ابعث إلي برأس الكميت بن زيد. فبعث خالد إلى الكميت في الليل. فأخذه وأودعه السجن. ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام، واعتذر إليهم من قتله، وآذنهم في إنفاذ الأمر فيه في الغد. ثم قال لأبان بن الوليد البجلي، وكان صديقاً للكميت: انظر ما ورد في صديقك. فقال: عزَّ عليّ والله ما به. ثم قام أبان فبعث إلى الكميت فأنذره فتوجه إلى امرأته. ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه وهربه إلى الشام كما في الرواية الأولى، إلى أن قال: فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به. فقال: إني أخشى ألا ينفعك جواري عنده، ولكن استجر بابنه مسلمة بن

---

(١) النسيء والنسيء: اللبن الرقيق الكثير الماء. وفي التهذيب: الممذوق بالماء. ونسأته نسأ ونسأته إياه: خلطته له بماء (اللسان مادة نسأ ١/ ١٦٩).

هشام. فقال: كن أنت السفير بيني وبينه في ذلك. ففعل مسلمة. وقال لابن أخيه: قد أتيتك بشرف الدهر، واعتقاد الصنيعة في مضر، وأخبره الخبر. فأجاره مسلمة بن هشام، وبلغ ذلك هشاماً فدعا به. ثم قال: أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره؟ فقال: كلا ولكني انتظرت سكون غضبه. قال: أحضرنيه الساعة، فإنه لا جوار لك. فقال مسلمة للكميت: إن أمير المؤمنين أمرني بإحضارك. قال: أتسلمني يا أبا شاكر؟ قال: كلا، ولكني احتال لك. ثم قال له: إن معاوية بن هشام مات قريباً، وقد جزع عليه جزعاً شديداً، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، وأنا أبعث إليك ببنيه يكونون معك في الرواق. فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك، ويقولوا: هذا استجار بقبر أبينا، ونحن أحق من أجاره.

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر. فقال: من هذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر. فقال: يجار من كان إلا الكميت فإنه لا جوار له. فقيل: فإنه الكميت. قال: يحضر أعنف إحضار. فلما دعي به ربط الصبيان ثيابهم بثيابه، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر، وهم يقولون: يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا وقد مات، ومات حظه من الدنيا، فاجعله هبة له ولنا، ولا تفضحنا فيمن استجار به. فبكى هشام حتى انتحب، ثم أقبل على الكميت وقال له: يا كميت أنت القائل:

وإن لا تقولوا غيرها تتعرفوا
نواصيها تردى بنا وهي شُزَّبُ

فقال: لا والله، ولا أتان من أتن الحجاز وحشية. فحمد الله

وأثنى عليه وصلّى على نبيّه. ثم قال:

أما بعد: فإني كنت أتدهدى في غمرة، وأعوم في بحر غواية. أخنىٰ عليَّ خطلها، واستفزني وهلها؛ فتحيرت في الضلالة، وتسكعت في الجهالة مهرعاً عن الحق، جائراً عن القصد، أقول الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتان وبالاً، وهذا مقام العائذ، مبصر الهدى، ورافض العماية، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة، واصفح عن الزلة، واعف عن الجَرْمة ثم قال:

كـــم قــــائلكـــم لعـــاً
لــك عنــد عثــرتــه لعــائــر

وغفـــرتـــم لـــذوي الـــذنـــو
ب مـــن الأكـــابـــر والأصـــاغـــر

أبنـــي أميـــة إنكـــم
أهـــل الـــوســـائـــل والأوامـــر

ثقتـــي لكـــل ملمـــة
وعشيـــرتـــي دون العشـــائـــر

أنتـــم معـــادن للخـــلا
فـــة كـــابـــراً مـــن بعـــد كـــابـــر

بـــالتسعـــة المتتـــابعيـ
ـــن خـــلائفـــاً وبخيـــر عـــاشـــر[1]

وإلـــى القيـــامـــة لا تـــزا
ل لشـــافـــعٍ منكـــم وواتـــر

---

(١) وهنا قصد الكميت هشام بن عبد الملك.

ثم قطع الإنشاد، وعاد إلى خطبته، فقال: إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته. مناط المنتجعين بحبله، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين فضلاً عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين.

ـ فقال له: ويلك يا كميت. من زين لك الغواية؟ ودلاك في العماية؟

ـ قال: الذي أخرج أبانا من الجنة، وأنساه العهد فلم يجد له عزما.

ـ فقال: إيه! أنت القائل:

يـــا مـــوقـــداً نـــاراً لغيـــرك ضـــوءهـــا
ويـــا حـــاطبـــاً فـــي غيـــر حبلـــك تحطـــب

ـ فقال: بل أنا القائل:

إلـــى آل بيـــت أبـــي مـــالـــك
مـنـــاخ هـــو الأرحـــب الأسهـــل
نمـــت بـــأرحـــامنـــا الـــدَّاخـــلا
ت مـــن حيـــث لا ينكـــر المـــدخـــل
بيـــرَّة والنضـــر والمـــالكيـ
ن رهـــط هـــم الأنبـــل الأنبـــلُ
وبابنـــي خـــزيمـــة بـــدر السمـــا
ءِ والشمـــس مفتـــاح مـــا نـــأمـــلُ
وجـــدنـــا قـــريشـــاً قـــريـــش البطـــا
حِ علـــى مـــا بنـــى الأوَّل الأول

بهـــم صلـــح النـــاس بعـــد الفســـاد
وحيـــص مـــن الفتـــق مـــا رعبلـــوا[1]

ـ قال له: أنت القائل:

لا كعبـــــد المليـــــك أو كـــــوليـــــد
أو سليمـــــان بعـــــد أو كهشـــــام
مـــن يمـــت لا يمـــت فقيـــراً ومـــن يحـ
ـيـــى فـــلا ذو إلٍّ ولا ذو ذمـــام[2]

ويلك يا كميت جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة.

ـ فقال، بل أنا القائل يا أمير المؤمنين:

فـــالآن صـــرت إلـــى أميّـ
ـــة والأمـــور إلـــى المصـــايـــر
والآن صـــــرت بهـــــا المصيـ
ـــب كمهتـــدٍ بـــالأمـــس حـــائـــر
يـــا بـــن العقـــائـــل للعقـــا
ئـــل والجحـــاجحـــة الأخـــايـــر[3]
مـــن عبـــد شمـــس والأكـــا
بـــر مـــنّ أميـــة فـــالأكـــابـــر

(١) حيص: أصلح. ورعبل الثوب: مزّقه.
(٢) الإل: العهد. والذمام: الحق والحرمة.
(٣) الجحاجحة: جمع جحجاح، وهو السيد العظيم.

إنَّ الخلافة والإلا
ف برغم ذي حسدٍ وواغر
دلفا من الشرف التليد
إليك بالرفد الموافر
فحللت معتلج البطا
ح وحلَّ غيرُك بالظواهر

ـ قال له: فأنت القائل:

فقل لبني أمية حيث حلّوا
وإن خفت المهند والقطيعا[1]
أجاع الله من أشبعتموه
وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضيِّ السياسة هاشميّ
يكون حيّاً لأمته ربيعا

ـ فقال: لا تثريب يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تمحو عني قولي الكاذب.

ـ قال: بماذا؟

---

(١) القطيع: السوط يقطع من جلد سير ويعمل منه. وقال الأزهري: سمي السوط قطيعاً لأنهم يأخذون القد المحرم فيقطعونه أربعة سيور. ثم يفتلونه ويلوونه ويتركونه حتى ييبس فيقوم قياماً كأنه عصا. وسمي قطيعاً لأنه يقطع أربع طاقات ثم يلوى (اللسان مادة قطع) (٨/ ٢٨٢).

ـ قال: بقولي الصادق:

أورثتـــــــه الحصـــــــان أم هشـــــــام
حسبـــــاً ثـــاقبـــاً ووجهـــــاً نضيـــــرا
وتعـــاطـــى بـــه ابـــن عـــائشـــة البـــد
ر فـــأمســـى لـــــه رقيبـــــاً نظيـــــرا
وكســـاه أبـــو الخـــلائـــف مـــروا
ن سنـــيّ المكـــــارم المـــأثـــورا
لـــم تجهّـــم لـــه البطـــاح ولكـــن
وجـــــدتهـــا لـــــه مغـــــاراً ودورا

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً، وقال: هكذا فليكن الشعر ـ يقولها لسالم بن عبد الله بن عمر، وكان إلى جانبه ـ ثم قال: رضيت عنك يا كميت فقبّل يده، وقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تزيد في تشريفي، ولا تجعل لخالد عليَّ إمارة. قال: قد فعلت. وكتب له بذلك، وأمر له بأربعين ألف درهم، وثلاثين ثوباً هشامية، وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ففعل ذلك.

الرواية الثالثة: وأما الرواية الثالثة فرواها أبو الفرج أيضاً، قال: أخبرني أحمد بن عبد الله بن عمار، قال حدّثنا النوفلي علي بن محمد بن سليمان أبو الحسن، قال حدّثني أبي. قال: كان هشام بن عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله، وكان يقال له إنه يريد خلعك، فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر، فدخل بها على هشام فقرئت عليه وهي:

تــألــق بــرق عنــدنــا وتقــابلــت
أثــاف لقــدر الحــرب أخشــى اقتبــالهــا[1]
فــدونــك قــدر الحــرب وهــي مقــرّة
لكفيــك واجعــل دون قــدر جعــالهــا[2]
ولــن تنتهــي أو يبلــغ الأمــر حــدَّه
فنلهــا بــرسـل قبــل ألا تنــالهــا[3]
فتجشــم منهــا مــا جشمــت مــن التــي
بســوراء هــرَّت نحــو حــالــك حــالهــا[4]
تــلاف أمــور النــاس قبــل تفــاقــم
بعقــدة حــزم لا تخــاف انحــلالهــا
فمــا أبــرم الأقــوام يــومــاً لحيلــة
مــن الأمــر إلا قلــدوك احتيــالهــا
وقــد تخبــر الحــرب العــوان بســرهــا
- وإن لــم تبــح - مــن لا يــريــد ســؤالهــا[5]

---

(١) الأثافي: الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها واحدتها أثفية. (أثف ٩/٣ اللسان).
(٢) الجعالة: خرقة تنزل بها القدر.
(٣) الرسل والرسلة: الرفق والتؤدة.
(٤) سوراء: موضع يقال هو إلى جنب بغداد. وقيل هو بغداد نفسها. وقال الأديبي سوراء موضع بالجزيرة. معجم البلدان الحموي ٣/٢٧٨. هرَّت: صوّتت.
(٥) الحرب العوان: هي الحرب التي قوتل فيها مرة بعد الأخرى كأنهم جعلوا الأولى بكراً. وحرب عوان: كان قبلها حرب. اللسان مادة عون ١٣/٢٩٩.

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة، فجمعوا، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم. فقال: شعر من تشبه هذه الأبيات؟ فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدي، فقال هشام: نعم هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد الله. ثم كتب إلى خالد بخبره. وكتب إليه بالأبيات، وخالد يومئذٍ بواسط، فكتب خالد إلى واليه بالكوفة، يأمره بأخذ الكميت وحبسه، وقال لأصحابه: إنه بلغني أن هذا يمدح بني هاشم، ويهجو بني أمية، فأتوني من شعره هذا بشيء فأتوه بقصيدته اللامية التي أولها:

ألا هـــل عـــمٍ فـــي رأيـــه متـــأمّـــل
وهـــل مـــدبـــر بعـــد الإســـاءة مقبـــل

فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام يقول فيه: هذا شعر الكميت فإن كان قد صدق في هذا، فقد صدق في ذاك.

فلما قرئت على هشام اغتاظ، فلما قال:

فيـــا ســـاســـة هـــاتـــوا لنـــا مـــن جـــوابكـــم
ففيكـــم لعمـــري ذو أفـــانيـــن مِقْـــوَل

اشتد غيظه. فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه، ويضرب عنقه، ويهدم داره، ويصلبه على ترابها، فلما قرأ خالد الكتاب، كره أن يستفسد عشيرته، وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت. فقال: لقد كتب إليّ أمير المؤمنين، وإني لأكره أن أستفسد عشيرته، وسمّاه،

فعرف عبد الرحمٰن بن عنبسة بن سعيد ما أراد، فأخرج غلاماً له مولداً ظريفاً، فأعطاه بغلة له شقراء فارهة[١] من بغال الخليفة، وقال: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعله أن يتخلص من الحبس، فأنت حر لوجه الله، والبغلة لك. ولك عليّ بعد ذلك إكرامك والإحسان إليك. فركب البغلة، وسار بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة، فصبحها فدخل الحبس متنكراً، فخبر الكميت بالقصة. فأرسل إلى امرأته وهي ابنة عمه، يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفان، ففعلت فقال: البسيني لبسة النساء. ففعلت فخرج فمر بالسجان فظن أنه المرأة، فلم يعرض له، فنجا، وأنشأ يقول:

خـــرجـــت خـــروج القـــدح قـــدح ابـــن مقبـــل
علـــى الـــرغـــم مـــن تلـــك النـــوابـــح والمشلـــي
علـــــيّ ثيـــــاب الغـــــانيـــــات وتحتهـــــا
عـــــزيمـــــة أمـــــرٍ أشبهـــــت سَلّـــــة النصـــــل

وورد كتاب خالد على والي الكوفة، يأمره فيه بما كتب به إليه هشام فأرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس، فينفذ فيه أمر خالد، فدنا من باب البيت[٢]، فكلمتهم المرأة وخبرتهم أنها في البيت، وأن الكميت قد خرج، فكتب بذلك إلى خالد، فأجابه: حرة كريمة، آست ابن عمها بنفسها، وأمر بتخليتها. فبلغ الخبر الأعور الكلبي

---

(١) بغلة فارهة: أي نشيطة ولا يقال للفرس فاره إنما يقال في البغل والحمار والكلب. وأما الفرس فيقال له جواد رائع.

(٢) البيت: هنا حجرة السجن.

بالشام فقال قصيدته التي يرمي فيها امرأة الكميت بأهل الحبس، ويقول:

فمـــا وجـــدت بنـــات بنـــي نـــزار
حـــلائـــل أســـوديـــن واحمـــريـنـــا[1]

فهاج الكميت ذلك حتى قال:

* ألا حُيِّيت عنا يا مدينا *

وهي ثلاثمائة بيت لم يترك حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم وتوارى وطلب، فمضى إلى الشام. فقال شعره الذي يقول فيه:

* قف بالديار وقوف زائر *

ويقول:

يـــا مسلـــم بـــن أبـــي الـــوليـ
ـــد لميـــتٍ إن شئـــت نـــاشـــر
اليـــوم صـــرت إلـــى أميَّـ
ـــة والأمـــور إلـــى المصـــايـــر

فأذن له ليلاً فسأله أن يجيره على هشام، فقال: إني إن أجرت على أمير المؤمنين فأخفر جواري، ولكني أدلك، فاستجر بمسلمة بن هشام، وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم، فإن أمير المؤمنين قد

(١) انظر خزانة الأدب للبغدادي ١/٨٦.

رشحه لولاية العهد. فقال الكميت: بئس الرأي، أضيع دمي بين صبي وامرأة! فهل غير هذا؟ قال: نعم، مات معاوية ابن أمير المؤمنين، وكان يحبه، وقد جعل أمير المؤمنين على نفسه أن يزور قبره في كل أسبوع يوماً ـ وسمَّى يوماً بعينه ـ وهو يزوره في ذلك اليوم فامض فاضرب بناءك عند قبره، واستجر به، فإني سأحضر معه، وأكلمه بأكثر من الجوار.

ففعل ذلك الكميت في اليوم الذي يأتيه فيه أبوه، فجاء هشام ومعه مسلمة فنظر إلى البناء، فقال لبعض أعوانه: انظر ما هذا؟ فرجع فقال: الكميت بن زيد، مستجير بقبر معاوية ابن أمير المؤمنين. فأمر بقتله، فكلمه مسلمة، وقال: يا أمير المؤمنين، إن إخفار الأموات عار على الأحياء، فلم يزل يعظم عليه الأمر حتى أجاره.

وجوه اضطراب الروايات:

وهذه الروايات الثلاث التي رواها أبو الفرج في سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله، وهي روايات مضطربة ومتعارضة في أمور كثيرة. وكان على أبي الفرج أن يبين لنا ما هو الراجح في ذلك التعارض ولكنه لم يكن يعنى في الأكثر بنقد رواياته، إنما كان يهمه الجمع والتفصيل أكثر من النقد.

فمن ذلك الاضطراب أن الرواية الأولى تصرّح بسبب المنافرة بينهما قصيدة الكميت في هجاء اليمن:

* ألا حييت عنا يا مدينا*

وقد صرحت بذلك الرواية الثانية أيضاً على خلاف قليل بينهما، أما الرواية الثالثة فتصرِّح بأن سبب المنافرة بينهما شعر الكميت في تحريض هشام على خالد، لا قصيدته في هجاء اليمن، لأنها وردت في هذه الرواية متأخرة عن سجن الكميت، وقد قالها الكميت في هذه الرواية رداً على الأعور الكلبي في قصيدته التي يرمي فيها امرأته بأهل الحبس.

ـ ومن ذلك الاضطراب أن الرواية الأولى تصرِّح بأن خالداً روى الهاشميات جارية واحدة، وأن الرواية الثانية بأنه رواها ثلاثين جارية.

ـ ومن ذلك الاضطراب أن الرواية الأولى تصرِّح بأن أبان بن الوليد البجلي عامل واسط هو الذي سعى في تهريب الكميت من السجن، أما الرواية الثالثة فتصرِّح بأن الذي سعى في ذلك هو عبد الرحمٰن بن عنبسة بن سعيد.

ـ ومن ذلك الاضطراب أن الرواية الأولى ظاهرة في أن خالداً كان بالكوفة حينما أمر بسجن الكميت، أما الرواية الثالثة فصريحة في أن خالداً كان بواسط حينما أمر بذلك، وأن أمره به كان إلى واليه بالكوفة.

وأوجه الاضطراب كثيرة اقتصرنا على هذا القدر اليسير ومن شاء فليراجع كتاب «الكميت بن زيد» لعبد المتعال الصعيدي. فلا شك أنك عزيزي القارىء واجد ما تصبو إليه.

موته ووصيّته:

مات الكميت في سنة ست وعشرين ومائة في خلافة مروان بن

محمد[1]، وكان مبلغ شعره حين مات خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً.

وقال يعقوب بن إسرائيل في رواية عمي خاصة عنه: حدّثت المستهل بن الكميت أنه قال: حضرت أبي عند الموت وهو يجود بنفسه، ثم أفاق ففتح عينيه، ثم قال: ـ اللهم آل محمد، اللهم آل محمد، اللهم آل محمد ـ ثلاثاً. ثم قال لي: يا بني وددت أني لم أكن هجوت نساء بني كلب بهذا البيت:

مع العضروط والعسفاء ألقوا
برادعهن غير محصَّنينا[2]

فعممتهن قذفاً بالفجور، والله ما خرجت بليل قط إلا خشيت أن أرمى بنجوم السماء لذلك. ثم قال: يا بني إنه بلغني في الروايات أنه يحفر بظهر الكوفة خندق يخرج فيه الموتى من قبورهم وينبشون منها، فيحولون إلى قبورٍ غير قبورهم، فلا تدفني في الظهر، ولكن

---

(١) هو مروان بن محمد بن الحكم أبو عبد الملك، ويعرف بالجعدي وبالحمار، آخر ملوك بني أمية في الشام. ولد بالجزيرة وأبوه متوليها. ولاه هشام بن عبد الملك على أذربيجان وأرمينية والجزيرة (سنة ١١٤ هـ). استولى على عرش بني مروان (١٢٧ هـ) وفي أيامه قويت الدعوة العباسية. (توفي سنة ١٣٢ هـ)، الأعلام ٧/ ٢٠٨.

(٢) العضروط: الخادم على طعام بطنه. والعسيف: الأجير. والبرادع والبراذع: واحدة بردعة وبرذعة: كساء يلقى على ظهر الدابة.

إذا مت فامضى بي إلى موضع يقال له مكران[1] ، فادفني فيه.

فدفن في ذلك الموضع وكان أول من دفن فيه، وهي مقبرة بني أسد إلى الساعة. قال المستهل: ومات أبي في خلافة مروان بن محمد في سنة ست وعشرين ومائة.

---

(١) مكران: موضع في بلاد العرب. قال الشاعر:

كــأن راعينــا يحــدو بنــا حمــراً
بيــن الأبــارق مــن مكــران فــاللّــوب
فــإن تقــرّي بهــا عينــاً وتختفضــي
فينــا وتنتظــري كــرّي وتقــريبــي

انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٥/ ١٨٠.

الفصل الرابع

اغراضه الشعرية:

لقد امتدح شعر الكميت لفوائده العلمية والتاريخية واللغوية والفوائد والنوادر، وهي هم أهل المعاجم واللغة والنسب والنحو. وقال ابن عبدة النساب:

«ما عرف النسّاب أنساب العرب على حقيقة حتى قال الكميت النزاريات فأظهر علماً كثيراً ولقد نظرت في شعره فما رأيت أحداً أعلم منه بالعرب وأيامها»[1].

وقال السكوني: «جمعت شعره فكان عوني على التصنيف لأيام العرب» ويقول أبو عكرمة الضبي: «لولا شعر الكميت لم يكن للغة

---

(١) انظر كتاب معجم الأدباء ٨/٣ طبعة دار المأمون د. ت.

ترجمان، ولا للبيان لسان»[1] . واعتبر أبي عبيدة الكميت مفخرة بني أسد يكفيهم به فخراً. وكانوا يفخرون به كافتخار الأمم بعظمائها وقوادها وأبطالها.

ويمكننا بعد هذه النبذة أن نستعرض شعره والأغراض التي عالجها.
ومن السهولة على أي قارىء أن يدرك أن المدح، والرثاء، والهجاء، هي من بين الأغراض التي طرقها الشاعر وقال القدامى فيها رأيهم، ويمكن الافتراض أن أكثر هذه الأغراض هو شعر المدح، ويليه الرثاء، فالهجاء. أما في هذه الدراسة نريد أن نبحث في غير هذه الأغراض ونبحث فيما أهمله القدامى من أغراض شعر الكميت الأخرى؛ لأنها في الواقع هي سبب من الأسباب الرئيسة التي فرضت شخصية الشاعر على الأدباء ومؤرخي الأدب.

١ ـ الوصف:

لعل شعر الوصف من أجمل أشعار الكميت وأكثرها دقة وعنفاً وتأثيراً في النفس، وهو قد وفّق مع الحيوان واصفاً له، ومحلّلاً لدوافعه الغريزية أكثر مما وفق على تحليل نفسية أي خليفة أو أمير أو أية شخصية إنسانية، فهو قد استجاب للطبيعة أكثر من استجابته للحياة المدنية، ووصف الحيوان أكثر مما وصف من أخلاق الناس، ممن حوله، فحبه للحيوان جعل ملاحظته دقيقة، ووصفه للحيوان يجعل الاستجابة لهذا الشعر أكثر عمقاً، من استجابته لشعر المدح الرسمي ولما فيه من مواقف النفاق والتكلّف والصنعة. وهو قد

---

(١) انظر كتاب شرح شواهد المغني للسيوطي ٣٧.

وصف الحيوان من ناحيتين:

الأولى: وصف نفسيَّه ورفعه إلى مستوى العبرة والتأمل في حياته وظروفه، على أن ما فيهما ما يماثل حياة وظروف الإنسان. ويمكن استنباط الشاهد والمثل منها. ولعل هذا هو أجود أشعار الوصف للطبيعة عنده.

الثانية: الوصف الخارجي للحيوان أو بيئته وهيئته، والغريب أن شعر الوصف للحيوان في شعر الكميت أبين وأوضح من وصفه للنبات. والتعليل لذلك أنه عاش أكثر حياته في بيئة صحراوية أو شبه صحراوية يفتقد فيها الشجر والنبات ولا يفتقد فيها الحيوان. وبذلك يكون قد صدر صدوراً طبيعياً بدون تكلّف أو تعمل، واستجاب للبيئة التي يحياها دون أن يتعمد ابتكار تجارب خاصة أو يمّوه إحساسه.

وهو في وصفه للحيوان قد كان ينفذ إلى أعمق مشاعره الغريزية، وتمكّن من استحداث العطف والشفقة لأشد هذه الحيوانات ضراوة في حالات ضعفها.

فهو يصف هنا ذئباً لقيه في سفره في الصحراء وكان الذئب كبير السن ضعيفاً:

لقينـــا بهـــا ثلبـــاً ضـــريـــراً كـــأنـــه
إلـــى كـــل مـــن لاقـــى فـــي النـــاس مـــذنـــب

مضيعـــاً إذا أثـــرى كســـوبـــاً إذا عـــدا
لســـاعتـــه مـــا يستفيـــد ويكســـب

تضــــور، يشكــــو مــــا بــــه مــــن خصــــاصــــة
وكــــاد مــــن الإفصــــاح بــــالشكــــو يعــــرب

فهو قد صوّر هذا الحيوان في حالتي قوته وضعفه وصوّر سلوكه في هاتين الحالتين خير تصوير.

ويصوِّر في النص التالي شعور البدوي في الصحراء إزاء كل ذي حياة أيام المجاعة والحاجة الداعية لحفظ الروح إزاء الطبيعة القاسية، وتكاتف الإنسان والحيوان في سبيل البقاء:

بنــــائيــــة المنــــاهــــل ذات غــــول
لســــرحــــان الفــــلاة بهــــا ضبيــــب
يــــرانــــي فــــي الطعــــام لــــه صــــديقــــاً
وشــــادنــــة العســــابــــر رعبليــــب
إذ اشتكيــــا إلــــي رأيــــت حقــــاً
لمحــــروميــــن شفهمــــا السغــــوب

وهــو كثيــراً مــا يستخــدم هــذه الصــور النفسيــة لحيــوان البيئــة الصحراوية على سبيل تشبيه الصورة، أو التشبيه المركَّب الذي يسمّيه الأوروبيون بالتشبيه الهويروسي[1].

فهو يقارن بين وضع قضاعة وهي تنتفي من نسبها القديم وتتحول

---

(١) HOMERIC-SIMILE-

إلى نسبها الجديد، ويشبّهها بفرخ النعام يكون ضعيفاً حين يتفلق عنه قيض البيضة.

وسرعان ما يقوى وتترك أقدامه التي بدأت تشتد وتقوى أثرها على الرمل كأنه الودع. وهنا يبدأ يعادي أبويه اللذين عاركا في سبيله الذئاب وكل مفترس في الصحراء ثم يفارقهما. وهذه هي سنّة الحياة:

أولـــى وأولـــى لـــه حسنـــى وسيئـــة
تبـــالـــى الهيـــق والمكلـــوء ذي الـــزغـــب
لمـــا تفلـــق عنـــه قيـــض بيضتـــه
آواه فـــي ضبـــن مضبـــوء بـــه نصـــب
وان تعـــرض محتـــس الـــذئـــاب لـــه
أوفـــى بـــأولـــق ذي الـــزبـــونـــة الحـــرب
حتـــى إذا علـــم التـــدارج واتخـــذت
رجـــلاه كـــالـــودع آثـــاراً علـــى الكثـــب
وخـــالـــه ضـــد مـــن قـــد كـــان يكلـــؤه
بـــالأمـــس إن الهـــوى داع إلـــى الشجـــب
ولّـــى مبـــاعـــدة منـــه ومـــزريـــة
مـــن غيـــر مـــزري بـــه والحيـــن ذو سبـــب

وهو في تسجيل أطباع الحيوان ونفسيّته كأنه صوّر عن قرب وملاحظة دقيقة لأطباعها وبيئتها وظروفها، فهو يصوّر اللوعة والهم والألم في رعاية الظبية لولدها الضعيف. تخرج مبكرة لتملأ له أوطابها لبناً ويبقى هو في كناسة، ولكن الأم تقلق لغفلة وجهل وحماقة صغيرها وتغفل الذئب له:

تحنو على خدر القيام وترعوي
بغناه في سمح الوعاء معلق
بكرت وأصبح في المبيت يؤودها
لوث المغفل واعتناق الأخرق

وهذه هي صورة أخرى لشك الكلب في أن يكون الفارس المدرع ـ الذي وضع على رأسه البيضة وغطى وجهه ـ صاحبه الذي يقدم له الطعام فيدخل ذيله بين رجليه ويتحفز:

واستشعر الكلب انكاراً لمولغه
في حولة قصرت عن نعتها الحول

وقد حاول الكميت أن يعطي لقطات ثابتة ومتحركة لصور الحيوان الصحراوي. فهو يسجل تقاطيع النوق التي أضناها النظر في الهاجرة. فبدت كأنها غائرة العيون:

كأن عيونهن مهججات
إذار راحت من الأصل المرور

وصوّر الناقة العشواء وما تثيره بين الصخور من الزواحف:

دع خبط عشواء في ليلاء مظلمة
هاجت أفاعي رقشاً بين أحجار

واهتم الكميت بوصف الحمار الوحشي والثور الوحشي، وهو في ظروفه الخاصة في حالة اصطياده أو في حالة رعيه تحت الشمس

والمطر.

فهذا الثور في حالة الصراع مع الكلاب وصورة الدم يسيل منها:

تتبعهـــا بـــالطعـــن شـــزراً كـــأنمـــا
يبجـــس روقـــاه المـــزاد اللبـــائســـا

وهذه حركة سريعة في حالة طعن خاطفة:

مكـــر بـــاسحـــم مثـــل السنـــان
ســـوى مـــا أصـــاب بـــه مقتـــل

كـــأن مـــج ريقتـــه فـــي الفطـــاط
بـــه ســـالـــخ الجلـــد مستبـــدل

وهذا حمار وحشي نصفه تحت السماء الماطرة، ونصفه تحت الشجر، والسماء تسقط عليه مطرها، والأوراق تسح عليه ما علق بها:

تحـــت الألاءة فـــي نـــوعيـــن مـــن غســـل
بـــاتـــا عليـــه بتسجـــال وتقطـــار

ـ وكما سجل الكميت مظاهر الحيوان في حالة سكونه وحركته وتحت الظروف المناخية المختلفة فإنه قد سجل أصواته أيضاً:

الا لهمهمـــــــــــــــــة الصهيـ
ـــــل وحنـــة الكـــوم البهـــازر

ـ وقال في صياح الثعالب وعواء الذئاب:

وتسمع أصوات الفراعل حوله
يعاوين أصوات الذئاب الهقالسا

ـ وقال في صوت الطير:
تغريد ساق على ساق تجاوبها
من الهواتف ذات الطوق والعطل

ـ ووصف غير الناقة، والحمار الوحشيين! فقد لاحظ كل شيء حوله في بيئته. فهذا قطار نمل يتحرك:
وأنقذ النمل بالصرائم مسا
جمع الحاطبون وانتشبوا

ـ وهذه صورة الخيول في المعركة حالة نشاطها واستعدادها للهجوم:
ومستلئمات دارعات تشبهت
بفرسانها في الحرب ليس لها ذعر
يخضن غمار الموت من غير ذلة
تخال بها سكراً وليس بها سكر

ـ وهذه صورة لناقة معذبة عقرها وغادرها تنتحب وتقطع أوصالها:
فغادرتها تحبوا عقيراً ونشنشوا
حقيبتها بين التوزع والنثر

ـ ولاحظ الشاعر الجليل والقوي من الحيوان كما لاحظ الصغير والضعيف ونظر إلى أعالي الشجر وقمم الجبال كما نظر في أفاحيص القط ووصف فراخها:

كـــل صـــاد كـــأن بـــالجلـــد منـــه
حصفـــاً أو تخـــالـــه مجـــدورا

وهو إذ وصف حيواناً وبيئته فقد وصف مناخها وظروفها في حالتي بردها وحرها ووصف أيام المحل وأيام كثيرة الخير، وإقبال الربيع وتجدّد الحياة وامتلاء الأعشاش بالفراخ.

ولاحظ ما يعتري سلوك الإنسان من تأقلم عند تغيير البيئة فقد يتحول الكريم بخيلاً إلا ما ندر أيام المحل ويصبح الشبع أملاً:

وفـــي السنـــة الجمـــاد يكـــون غيثـــاً
إذا لـــم تعـــط درتهـــا الغضـــوب
وكـــان الســـوف للفتيـــان قـــوتـــاً
تعيـــش بـــه وهُبيـــت الـــرقـــوب
وصـــار وقـــودهـــم للحـــي أمـــا
وهـــان علـــى المخبـــأة الشحـــوب

وهذه صورة للبيئة القاسية وللصحراء وأهلها أيام البرد والمجاعة فالإنسان يزداد بخلاً ويحاول الصرد أن ينال الدفء بالنفخ في يده ويحاول الكلب الالتصاق بكل ما يعطيه الدفء والحرارة:

إذا اللقـــاح غـــدت ملقـــى أصـــرتهـــا
ولـــم تنـــد عصـــوب كـــف متعصـــب

وجـــاءت الـــريـــح مـــن تلقـــاء مغـــربهـــا
وضـــن مـــن قـــدره ذو القـــدر بـــالعقـــب

وكهكـــه المـــدلـــج المقـــرور فـــي يـــده
واستـــدفـــأ الكلـــب المـــأســـور ذي الـــذئـــب

وقال:

إذا التـــــف دون الفتـــــاة الضجيـــــع
ووحـــــوج ذو الفـــــروة المـــــرمـــــل

وهو إذا وصف هذه الأجواء القاسية ووصف الريح والبرد والحيوان والإنسان الذي يحاول أن يتغلب على هذا الجو بالالتفاف بالمرأة أو الفروة أو النار أو النفخ في اليد فهو قد وصف لنا كذلك الصحراء في الصيف الحار، إذ تكاد الحرارة تصهر الصخور وتخلو الأرض الفضاء من الناس فكأنها لا يسكنها إلا الجن:

وخـــــرق تعـــــزف الجنـــــان فيـــــه
لافئـــــدة الكمـــــاة لهـــــا وجيـــــب

قطعـــــت ظـــــلام ليلتـــــه ويـــــومـــــاً
يكـــــاد حضـــــن الآكـــــام بـــــه يـــــذوب

ويصف شعاع الشمس الذي كأنه يذوب معدناً أو لعاباً يسيل من هذه الكرة الملتهبة على الأرض:

يصـــــافحـــــن خـــــد الشمـــــس كـــــل ظهيـــــرة
إذا الشمـــــس فـــــوق البيـــــد ذاب لعـــــابهـــــا

وهو إذا وصف الصحراء في النهار فقد وصفها في الليل ووصف وحشيتها:

ودويـــــة أنفـــــذت حضـــــن ظـــــلامهـــــا
هـــــدواً إذا مـــــا طـــــائـــــر الليـــــل أبصـــــرا

وللكميت إحساس باللون عميق خاصة عند التبدّل وذهاب الشتاء وجلال الربيع وإزهار النبات واشتداد حركة الطير مرة أخرى. فها هو يصف تلالاً مرتفعة نبت فيها زهر الربيع وزقزقت الأفراخ في وكورها:

إذا مـــــا القـــــف ذو الـــــرحيـــــن أبـــــدى
محـــــاسنـــــه وأفـــــرخـــــت الـــــوكـــــور

وقال:

حتـــــى كـــــأن عـــــراص الـــــدار أرديـــــة
مـــــن التجـــــاويـــــز أو كـــــراس أسفـــــار

ويصف خباء بشكل طائر ملون:

وربطـــــة فتيـــــان كخـــــاطـــــف ظلـــــه
جعلـــــت لهـــــا منهـــــا خبـــــاء ممـــــدا

وليس من السهل احصاء كافة ما تعرّض له الكميت بالوصف إلا أن يعدو الإنسان على كثير من نصوص الديوان، ولكن لا ننتهي من موضوع الوصف حتى نعرض لبعض صوره المختلفة لتكوين فكرة

ثابتة عن قدرة الكميت على التصوير الحركي، والخارجي، والنفسي، وتصوير الألوان وهذه صور متفرقة من شعره، فهو يصف القدْر:

نصبنـــا لهـــم دهمـــاء ذات همـــاهـــم
طـــويـــلاً بـــأفنـــاء البيـــوت ركـــودهـــا
لهـــا مـــوقفـــان دانيـــان وواقـــف
يخـــاف اطـــلاع غليهـــا فيـــذودهـــا

وتصور أنت عزيزي القارىء هذه القدْر واضطراب ما فيها وفورانها والطبّاخ وهو يحاول أن يوقف هذا الغليان بتقليل النار أو سحب ما يعلو من القدر.

- وهذه صورة كريم ضاحك مستند على وسادة ولاحظ حركته وهو ينهض نفسه ليثني الوسادة:

فـــأعطـــى ثـــم أعطـــى ثـــم عـــدنـــا
فـــأعطـــى ثـــم عـــدت لـــه فعـــادا
مـــراراً مـــا أعـــود إليـــه إلا
تبســـم ضـــاحكـــاً وثنـــى الـــوســـادا

وهذه صورة للشاعر يحدق فيها بشدة خلف ظعن راحل وقد أتعب نظره إذ ضمهم الآل عن متناول بصره ولك أن تتخيل وقفة هذا الناظر وحركة يده وهي تغطي عينيه في وهج الشمس:

أثـــأرتهـــم بصـــري والآل يـــرفعهـــم
حتـــى أسمـــدر بطـــرف العيـــن إقـــاري

وهذه صورة قوس ينطلق منها سهم على قطيع من الحمر الوحشية:

لـــم يعـــب ربهـــا ولا النـــاس منهـــا
غيـــر إنـــذارهـــا عليـــه الحميـــرا
بـــأهـــازيـــج مـــن أغـــانيهـــا الجـــش
وأتبـــاعهـــا الـــزفيـــرا الطحيـــرا

ـ وأخيراً، هذه صورة الأثافي التقليدية ينقلها في شكل يدل على الخلو والفراغ والإهمال:

إلا ثـــلاثـــاً فـــي المقـــا مـــة مـــا يحـــولهـــن نـــاقـــل
سفـــع الخـــدود كـــأنمـــا نثـــرت عليهـــن المكـــاهـــل

يشبه الكميت في وصفه الفنان الرسام الذي يحمل أصباغه وألواحه وهو يصوّر كل ما تقع عيناه عليه، وقد يكرر رسم نفس الصورة والمنظر ولكن من زوايا مختلفة.

٢ ـ التأمل والحكمة:

يبدو أن الشعر والسن هما المعول الأول والأخير للحظات التأمل في قصائد الكميت. ولا شك أنه استعان بما بين يديه من شعر الأقدمين في التراث الإسلامي الذي كان عمره حوالى ثلاثة أرباع القرن من المثل العليا والدنيا ومن الخير والشر. ولهذا لا يمكن أن نجد فلسفة خاصة أو شاذة أو جديدة عما كان مألوفاً حتى في زمن الكميت. ولكن هضمه لكل هذا ولكونه في آخر زمن تجمّعت فيه تجارب سريعة لبني قومه بعد الإسلام وعصر الفتوحات وما قبلها،

فعرض تجاربه بشكل جديد وجدير وعنيف أحياناً:

ولعل أنضح ما في شعره من التأمل قصيدة جمع فيها عدة حقائق هي خلاصة فلسفته النابعة من العلاقات الاجتماعية السائدة في بيئته. وفيها تمجيد للحلم والعقل والإفادة من التجربة والطاعة المستوجبة لذوي الرأي، فهو ينقل لنا بدقة بعض صور الحياة الاجتماعية في عصره، ويؤرخ إن صح التعبير الحياة العقلية وما استهدف في مجتمعه من العادات والتقاليد ويصوّرها بدقة بالغة:

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها
بطول ولا الأحداث تفنى خطوبها
ولا عبر الأيام يعرف بعضها
ببعض من الأقوام إلا لبيبها
ولم أر قول المرء إلا كنبله
به وله محرومها ومصيبها
وما غبن الأقوام مثل عقولهم
ولا مثلها كسباً أفاد كسوبها
وما غبن الأقوام عن مثل خطة
تغيب عنها يوم قيلت أريبها
وتفنيد قول المرء شين لرأيه
وزينة أخلاق الرجال وظوبها
وأجهل جهل القوم ما في عدوهم
وأقبح أخلاق الرجال غريبها
رأيت ثياب الحلم وهي مكنة
لذي الحلم يعرى وهو كاس سليبها

ولـــم أر بـــاب الشــــر سهــــلاً لأهلـــه
ولا طـــرق المعـــروف وعثـــا كثيبهـــا
وأكثـــر مـــأتـــى المـــرء مـــن مطمـــآنـــه
وأكثـــر أسبـــاب الـــرجـــال كـــذوبهـــا
ولكـــن صبـــراً عـــن أخ لـــك ضـــائـــر
عـــزاء إذا مـــا النفـــس حـــنَّ طـــروبهـــا
رأيـــت عـــذاب المـــاء إن حيـــل دونـــه
كفـــاك لمـــا لا بـــد منـــه شـــريبهـــا
وإن لـــم يكـــن إلا الأسنـــة مـــركـــب
فـــلا رأي للمحمـــول إلا ركـــوبهـــا

فالأبيات السابقة تكوِّن بشكل خاص فلسفته وربما خلاصة فلسفة بيئته البدوية التي يسود فيها ذوو الرأي الذين يرون التلبث والتصبر حتى لا يجد المرء مناصاً لاستعمال القوة للدفاع عن نفسه أو عن رأيه إذا أجبر على ذلك دون اللجوء إلى النظام أو القانون.

ويسجل تجاربه الأخرى وعلاقته مع الناس في حالات تتفاوت فيها الفكرة بين الرقي والإسفاف، وهنا يقول الكميت:

وقـــد يخـــذل المـــولـــى دعـــائـــي ويجتـــدى
أذاتـــي وإن يعـــدل بـــه الضيـــم أغضـــب
فـــأونـــس مـــن، بعـــض الصـــديـــق مـــلالـــه الـــد
نـــو فـــأستبقيهـــم بـــالتجنـــب

فهو إذ يظهر استقلالاً في تفكيره أحياناً قد يحدثك حديث البادية وسلوك أهل البدو فيقول:

لعمــــري لقــــوم المـــرء خيــــر بقيـــة
عليـــه وإن عـــالـــوا بـــه كـــل مـــركـــب
إذا كنـــت فـــي قـــوم عـــدى لســـت منهـــم
فكـــل مـــا علفـــت مـــن خبيـــث وطيـــب
وإن حـــدثتـــك النفـــس أنـــك قـــادر
علـــى مـــا حـــوت أيـــدي الـــرجـــال فجـــرب

وهو قد يخوض في علاقة الناس به وكرههم له وما يحدث بينهم من أذى ويحاول أن يرفع ذلك إلى مستوى التجربة العامة:

إن يحســـدونـــي فـــإنـــي لا ألـــومهـــم
قبلـــي مـــن النـــاس أهـــل الفضـــل قـــد

وهو يؤكد الحقيقة التالية: إن الناس يقولون أكثر مما يفعلون فيما يخص الحرب، فكم من مدع بلسانه كاذب الفعل فيها، فيقول:

النـــاس فـــي الحـــرب شتـــى وهـــي مقبلـــة
ويستـــوون إذا مـــا أدبـــر القبـــل
قـــل بـــأمسيهـــا طـــب مـــوليـــة
والعـــالمـــون بـــذي غـــدو بهـــا قلـــل

وحاول أن يؤكد على حقيقة السن وأثره في سلوك المرء. وعاب على المتصابين لهوهم وعبثهم وبكا الشباب كما لم يبكه شاعر قبله، وهو الذي هيأ هذا الشعر الذي ظهر في العصر العباسي حيث كثر فيه الحنين لأيام الشباب بعدما كثرت لذائذ الحياة وبدت لعيون شعراء العصر شيئاً يستحق أن يحياه الإنسان ويتمتع لما يهب من متعه. ولعل الكميت قد شعر بشيء من ذلك فقال:

والشيب فيه لأهل الرأي موعظة
ومن عيوب الرجال الشيب والغزل
إذا هما اتفقا نصاً فعودهما
إلى التي غبها التوقيع والجزل

وهو إذ يحن للشباب يعرف أنه يبكي شيئاً لن يعود وشيئاً لا يمكن استرجاعه، فيقول:

هل للشباب الذي فات من طلب
أم ليس غائبه الماضي بمنقلب
دع البكاء على حافات مطلبه
فالدهر يأتي بأنواعٍ من العجب
ما الشيء بالشيء فانظر في عواقبه
مما إذا هو يوماً غاب لم يؤب
ليت الشبيبة لم تظعن مقفية
وليت غائبها المألوف لم يغب
من يلبس الشيب يلبس من شبيبته
ما لن يعود ومن أثوابه القشب

تــــذكـــر الحـــالـــم العطشـــان فـــي وهـــج
مـــن الـــودائـــق مـــاء المـــزن فـــي النغـــب

ثم يذكّرنا بتجاربه في الشيخوخة والشباب فيقول:
وقـــد لبســـت مـــن النـــوعيـــن أرديـــة
شتـــى وجـــرّبـــت مـــن جـــدّ ومـــن لعـــب

ويتردد هذا الحنين في نصوص أخرى منها قوله في قصيدة:
هـــل لحـــال مـــن اقتيـــاض بحـــال
رب مغبـــون صفقـــة غيـــر آل
أم لشيـــب عـــلا المفـــارق بيـــع
بـــالشبـــاب المـــرجـــل الـــذيـــال

ولا نقول شيئاً شاذاً أو غريباً إذا قلنا أن تأملات الكميت أنضج ما يظهر في عصره، وأنه هيأ لهذا النوع من الأدب أن ينمو على أيدي شعراء العباسيين، وظهر ونضج في شعر البحتري(١) وأبي تمام(٢)،

(١) هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحتري (٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ) شاعر كبير يقال لشعره «سلاسل الذهب» ولد بمنبج وتوفي فيها له: ديوان شعر ـ وكتاب «الحماسة»، الأعلام ٨/ ١٢١، وفيات الأعيان ٢/ ١٧٥، المنتظم ٦/ ١١.
(٢) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام: الشاعر، الأديب (١٨٨ ـ ٢٣١ هـ) أحد أمراء البيان. ولد في جاسم وتوفي بالموصل. كان =

والشريف الرضي[1] والمتنبي[2]، وغيرهم.

٣ ـ الغزل التقليدي:

عرض النقاد للغزل الأموي وصنّفوه إلى صنفين:

الغزل التقليدي: وافترضوا فيه: التكلّف، وموت العاطفة، ودفع التقليد الشعري لتأليفه ونظمه.

والغزل المستقل: وينشطر إلى غزل واقعي أو غزل إباحي، وإلى غزل أفلاطوني تحدد إيجابيته وسلبيته شخصية العاشق ومظهره وبيئة المعشوقة. وهذا هو التقسيم النظري.

وكأن الشاعر الذي نظم الشعر (التقليدي) آلة تخلو من كل إحساس ولا يمر بالأزمات النفسية التي قد يتعرض لها الشاعر المختص بالغزل، أو الشخص الذي لا ينظم الشعر أصلاً. وهنا يقول

= فصيحاً حلو الكلام، في شعره قوة وجزالة. له تصانيف منها: «فحول الشعراء» و «ديوان الحماسة»، الأعلام ٢/ ١٦٥، وفيات الأعيان ١/ ١٢١.

(١) هو محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ) أشعر الطالبيين. مولده ووفاته في بغداد. له «ديوان شعر»، الأعلام ٦/ ٩٩، وفيات الأعيان ٢/ ٢، المنتظم ٧/ ٢٧٩، يتيمة الدهر ٢/ ٢٩٧.

(٢) هو أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ). الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. ولد بالكوفة. قتل وهو في طريقه إلى بغداد. له «ديوان شعر». الأعلام ١/ ١١٥، المنتظم ٧/ ٢٤.

الدكتور داوود سلوم: «. . . ونتحسس تفاهة هذا التقسيم حين نجد العاطفة والانفعال قد يكونا على أشدهما عند الشاعر الذي ينظم الغزل الذي يسمّونه بالتقليدي»[1] .

وضعف العاطفة، أو تهافتها وتفاهتها عند الشاعر المنصرف بكليته إلى الغزل ـ فهذا عمر بن أبي ربيعة الذي أوقف حياته على الشعر الغزلي، كثيراً ما يخلو شعره من اللوعة ويتحول إلى مجرد صور عارية لامرأة أو انطباعات المرأة عنه، أو قد يتحول إلى تشبيهات لا تفوق تشبيهات من سبقه من الشعراء. وإذا كان التفاضل والغزل هو الإكثار من الغزل أو الإنصراف إليه فقط هو المقياس، فقد اخطأنا الطريق ـ إذن ـ إلى قلوب الشعراء وانفعالاتهم.

ويتابع الدكتور داوود سلوم تعليله: «. . . ونحن نقول هذا لأننا نجد في شعر الكميت الرقة، والعاطفة، واللوعة، وأثر الشوق في نفس الشاعر مع الوصف الدقيق لجسد الأنثى. وهذه هي الأركان الأساسية للغزل الجيد الذي نبحث عنه في دواوين الشعراء وعنه نفتش ونريد أن نعرض لنماذج الكميت لنرى أنه في غزله لم يكن أقل من المدرسة الحجازية تأثراً وتأثيراً، ولعل لخُلق الكميت وحفاظه لدينه ومركزه اثراً في اشتداد هذه الحساسية واللوعة، وقد يكون الحرمان للأسباب الآنفة من أكثر العوامل أثراً في هذه الرقة واللطف والشوق المضغوط بين سطور أشعاره، فهو في وقوفه على الأطلال يفوق كثيراً من الشعراء الذين وقفوا هكذا للذكرى أو للبكاء دون اعتبار وتمييز. . . فهو أبداً يذكر الفرق بين ماضيه وحاضره، وبين شيخوخته

---

(١) انظر كتاب شعر الكميت بن زيد الأسدي لداوود سلوم ١/ ٥٠ .

وشبابه، وهو مجبر بحكم تقاليده أن يراعي ما يلاقيه كبير السن إذا تصابى، ويربط بين القديم والحديث[1] فيقول:

ألـــــم تلمـــــم علـــــى الطـــــل المحيـــــل
بغيـــــد ومـــــا بكـــــاؤك بـــــالطلـــــول
أألشيـــــب كـــــالـــــوليـــــد: رســـــم دار
تســـــائـــــل مـــــا أصـــــم عـــــن الســـــؤول؟؟!

وقال:

ولـــــن يستخيـــــر رســـــوم الـــــديـــــار
لعـــــولتـــــه ذو الصبـــــا المعـــــول

وقال:

أأبكـــــاك بـــــالعـــــرف المنـــــزل
ومـــــا أنـــــت والطلـــــل المحـــــول
ومـــــا أنـــــت ويـــــك ورســـــم الـــــديـــــار
وسنـــــك قـــــد قـــــاربـــــت تكمـــــل

وهو في وقفة من وقفاته يعود إلى الماضي ويتخيل تحمل الأظعان ويتمنى:

وقفـــــت علـــــى أطـــــلالهـــــا وتكـــــاثـــــرت
علـــــيَّ همـــــومـــــي فهـــــي تشبـــــه عـــــذالـــــي

---

(1) نفس المرجع السابق ١/٥١ وما بعدها.

ديـــار اللـــــواتـــي ســـرت فيهـــا عشيـــة
وغـــادرت قلبـــي بيـــن حـــزن وبلبـــال
ومـــا ارتحلـــت عنـــا الـــركـــائـــب وحـــدهـــا
ولكـــن روحـــي للـــركـــائـــب تـــال
ولـــو أنصفـــت داســـت بـــأخفـــافهـــا التـــي
تـــدوس بهـــا الأحجـــار لحمـــي وأوصـــالـــي
وكنـــت أجـــر الـــذيـــل مـــا بيـــن أهلهـــا
خليـــع عـــذار نـــاعـــم العيـــش والبـــال

وهو إذا أكثر من وصف الطلول والوقوف عليها والتثريب واللوم لنفسه والتمني لموته، وأن تكون النوق قد داسته وقضى في وقته ذاك، فقد وصف الشاعر المرأة وأثرها في نفسه فأجاد وأحسن. ومن نماذج شعره، قوله:

يمشيـــن مشـــى قطـــا البطـــاح تـــأودا
قـــب البطـــون رواجـــح الأكفـــال
يـــرميـــن بـــالحـــدق القلـــوب فمـــا تـــرى
إلا صـــريـــع هـــوى بغيـــر نبـــال
مـــن كـــل آنســـة الحـــديـــث حبيبـــة
ليســـت بفـــاحشـــة ولامتغـــال
أقصـــى مـــذاهبهـــا إذا لاقيتهـــا
فـــي الشهـــر بيـــن أســـرة وحجـــال
وتكـــون ريقتهـــا إذا نبهتهـــا
كـــالشهـــد أو كسلافـــة الجـــريـــال

ومن هذه الأشعار المختارة في الموضوع قوله:

هــــل أنــــت عـــن طلـــب الأيفـــاع منقلـــب
أم هـــل يحســـن مـــن ذي الشيبـــة اللعـــب
وقـــد رأينـــا بهـــا حـــورا منعمـــة
بيضـــا تكـــامـــل فيهـــا الـــدل والشنـــب

٤ ـ الشعر السياسي:

قبل دراسة شعر الهاشميات يبقى أن نذكر تاريخ تأليفها وتحديد فترة نظمه قدر المستطاع بعدما حملت إلينا كتب الأدب الروايات المختلفة حول تاريخ تأليف الهاشميات. ففي كتاب مروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) روايته تدور حول نظم الهاشميات بشكل طرافة قصصية وهي أشبه بمسرحية قصيرة من ذوات المشهد الواحد. انظر صفحة (٩٦) من كتابنا هذا وهذه القصة كما رواها لأول مرة المسعودي كثيراً ما ظهرت تباعاً في كتب التاريخ والأدب. فنجدها في شرح الشواهد للعيني[١]، وتظهر في شرح شواهد المغني للسيوطي، وفي معاهد التنصيص للعباسي، وفي الكشكول للعاملي، وفي الخزانة للبغدادي، وفي روضات الجنات للخوانساري، والرواية في حد ذاتها نستخلص منها خطأ بأن الهاشميات أول ما نفث على

(١) انظر خلاصة الذهب المسبوك ١١٧.

لسان الكميت، والقصة لا تحتاج إلى كثرة الجدل. فهناك مفارقة زمنية واضحة فقد ولّي هشام الخلافة عام ١٠٥ هـ وولّي خالد القسري العراق في نفس العام ولاّه هشام، وفي عام (١١١ هـ) «ظهر سليمان بن كثير الخزاعي وأصحابه بخراسان يدعون إلى بني هاشم». وفي عام (١١٤ هـ) حسب رواية الذهب المسبوك أو عام (١١٧ هـ) حسب رواية اليعقوبي[١]، مات الباقر، وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي، ولموته قيمة في معرفة نهاية الهاشميات. وفي ١١٩/ ١٢٠ هـ أخذ خالد بن عبد الله القسري في شبه انقلاب دبّره هشام وقبض عليه فيه يوسف بن عمر عند صلاة الصبح في المسجد وعزله ثم سجنه وطالبه بستة وثلاثين ألف درهم[٢].

وفي عام (١٢١ هـ) خرج زيد بن علي في الكوفة فأخذه يوسف بن عمر فقتله وصلبه ثم حرقه وذراه في الماء والبر وقال يوسف لأنصاره: «والله يا أهل الكوفة لأدعنكم تأكلونه في طعامكم وتشربونه في مائكم»[٣] واتهمه بأن لخالد عنده وديعة بمقدار ستمائة ألف درهم!

هذه اللقطات سوف تساعدنا على تحديد الفترة التي نظمت فيها الهاشميات والفترة التي انتهى فيها الكميت منها ولننظر في كتب الأدب بعد هذا. يمكن أن نحدد نهاية الهاشميات بسهولة إذا اعتمدنا على هذا النص: «دخل الكميت بن زيد الأسدي على أبي جعفر

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ٣٢٠.
(٢) نفس المصدر السابق ٣٢٣.
(٣) انظر تاريخ اليعقوبي ٣٢٦.

محمد بن علي عليهما السلام، فقال: يا كميت أنت القائل:

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصاير؟

قال: «نعم قد قلت، ولا والله ما أردت إلا الدنيا، ولقد عرفت فضلكم.

قال: أما إن قلت ذلك فإن التقية لتحل»[1].

فالإمام الباقر كما ذكرت كتب التواريخ قبل قليل توفي عام (١١٤ هـ أو ١١٧ هـ) فإذا أخذنا بالتاريخ الأخير يكون الكميت قد أنهى خصومته السياسية مع الأمويين في هذا العام. وانتهى نظم القصائد الطوال قبل هذا التاريخ.

وعلى هذا تكون الروايات المغايرة التي وردت في الأغاني فيها خطأ تاريخي واضح، فهناك رواية تقول:

«إن الكميت أنشد قصيدته التي يهجو فيها اليمن... فأحفظت خالد القسري عليه فروّى جارية حسناء قصائده الهاشميات. وأعدها ليهديها إلى هشام، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجاء بني أمية وأنفذ إليه قصيدته التي يقول فيها:

فيـــا رب هـــل إلا بـــك النصـــر يـــرتجـــى
ويـــا رب هـــل إلا عليـــك المعـــول

(١) انظر الأغاني ١٧/ ٣٥.

وهي طويلة يرثي فيها زيد بن علي وابنه الحسين بن زيد ويمدح بني هاشم»[1].

ومن السهل إذن أن يصحح الخطأ هنا ونقول: إن زيداً لم يرث في هذه القصيدة وهي قد ألقيت قبل عزل خالد وظهر زيد بعد عزله، فليلاحظ ذلك!...

إذن متى كتب الكميت الهاشميات إذا عرفنا أنها انتهت (عام ١١٧ هـ).

يبدو أن نشاط المعارضة السياسية الذي ظهر في تأسيس الحزب السري العباسي عام (١١١ هـ) وفي طموح عبد الله بن معاوية، وهو من أولاد جعفر بن أبي طالب وتمركز خالد بعد مرور سنوات على تعيينه هي الفترة التي كتبت فيها الهاشميات ـ ولا بأس أن نفترض حتى يقوم العكس ـ أن عام (١١١ هـ) وما تلاه حتى (١١٧ هـ) هي الفترة الملائمة لهذا النوع من الأدب الثوري، فقد ظهرت دعوات موجهة بشكل واع. وهناك طموح يسنده مال ضخم يوزع بشكل سري أو يودع لغرض الثورة.

والذي يبدو أن النقود التي اتهم بها زيد كانت موجودة عند عبد الله بن معاوية الذي ظهر بعد موت زيد وسيطر على غرب الامبراطورية الأموية حتى ظهر أبو مسلم. ويبدو أن الكميت نظم الهاشميات مدفوعاً دفعاً بكل هذه التأثيرات. ولعل مالاً مكتوماً وصله لنظمها، وألا ينبغي أن نستبعد شيئاً مثل هذا، وأن أربعاً من السنين

(١) انظر الأغاني ٦/١٧.

لكافية لتأليف قصائد معدودات. فإذا كانت القصائد العلوية موجودة منذ عام (١١١ هـ) فمتى سميت الهاشميات؟

ويقول الدكتور داوود سلوم: «لم أجد كلمة «هاشميات» فيما بين يدي من مصادر قبل ظهور كتاب الحيوان فهو يذكر ذكراً عابراً أحد كتبه: «وعبثني برسائلي الهاشميات»[(١)].

ويبدو أن لفظة هاشميات أطلقت متأخرة على المجموعة التي ضمت إليها الأبيات المتفرقة التي نظمت في زيد بن علي وتظهر أول ما تظهر تحمل هذا الاسم في شرح أبي رياش القيسي (ت ٣٣٩ هـ) قال: «هذه الهاشميات للكميت بن زيد الأسدي بتفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي رحمهما الله»[(٢)]. ثم تظهر القصائد بهذا الاسم في مروج الذهب للمسعودي والأغاني وفي التمثيل والمحاضرة للثعالبي»[(٣)].

وبعد تحديد فترة تأليفها وتسميتها بقي أن نعرف ما هو موضوعها الشعري؟ من السهل أن يقول القارىء: إن موضوعها هو مدح ورثاء وتمجيد للرسول ولآل بيته، ولكن هل حقاً هو هذا هدفها الحقيقي؟

لا شك أن الذي ينظر فيها يكاد يقطع أنها أُلّفت لغاية أخرى وللحث والحضّ على ثورة وقد غلفت هذا التغليف الديني كي ينجو

---

(١) انظر كتاب الحيوان الجاحظ ١/٧.

(٢) انظر كتاب شرح هاشميات الكميت تحقيق د. داوود سلوم ونوري حمودي القيسي صفحة ١١ ـ طبع دار عالم الكتب بيروت ١٩٨٤.

(٣) انظر كتاب شعر الكميت بن زيد الأسدي لداوود سلوم ١/٥٨ وما بعدها.

الشاعر بجلده من العقاب ولم يكد[1] .

فما هي الأفكار الأساسية؟

أولاً : فكرة تحسسها أهل الأمصار الذين اختلطوا بالموالي وأغرقوا في استغلال حقوقهم كفاتحين، ونشأت الفكرة ابتداء من اعتزاز العربي بنسبه وفتوحاته وانتصاراته، ومعاملته الأقوام المغلوبة أو المأسورة من الأمم معاملة قاسية جافة، وتركها خارج دائرة السلطة المغلقة، تشاركهم في هذا الشعور الأقوام المغضوب عليها كآل البيت وأنصارهم من العرب.

وثورة المختار تأكيد صريح لهذا رغم غلافها الديني، والنصوص التالية نداء صريح أيضاً إلى قيام الحاكم العادل الذي يساوي رعيته ولا يظلمها:

ســـاســـة لا كمـــن يـــرعـــى النـــا
س ســـــواء ورعيـــــة الأنعـــــام
لا كعبـــد المليـــك أو كـــوليـــد
أو كسليمـــان بعـــد أو كهشـــام
رأيهـــم فيهـــم كـــرأي ذوي الثلـ
ـــة فـــي الثـــائجـــات جنـــح الظـــلام
جـــزٌّ ذي الصـــوف وانتقـــاء لـــذ
ي المخـــة ونعقـــاً ودعـــدعـــا بـــالبهـــام
مـــن يمـــت لا يمـــت فقيـــراً وإن يحـ
ـــيى فـــلا ذو إلـــى ذو ذمـــام

---

(١) انظر المصدر السابق صفحة ٥٩.

فهـــم الأقـــربـــون مـــن كـــل خيـــر

وهـــم الأبعـــدون مـــن كـــل ذام

وهـــم الأفـــون بـــالنـــاس فـــي الـــرأ

فـــة والأحلمـــون فـــي الأحـــلام

فهذا الشعر ليس تقريراً لواقع الحال فقط، وإنما هو دعوة لما ينبغي أن يكون، ولما يريده الشاعر أن يكون عليه الأمر دون شك ويؤكد ذلك تأكيد الكميت بصورة خاصة على السيرة العادلة التي تميّز بها الخليفة الرابع:

راعيـــاً كـــان مسحجـــاً ففقـــدنـــا

• وفقـــد المسيـــم هلـــك الســـوام

ويقرر هذه الحقيقة وهذا التمني في نصوص أخرى مثل:

اؤمـــل عـــدلاً عســـى أن أنـــا

ل مـــا بيـــن شـــرق إلـــى مغـــرب

رفعـــت لهـــم نـــاظـــري خـــائـــف

علـــى الحـــق يقـــرع مستـــرهـــب

وقال أيضاً:

بمـــرضـــي السيـــاســـة هـــاشمـــي

يكـــون حيـــاً لأمتـــه ربيعهـــا

وليثـــاً فـــي المشـــاهـــد غيـــر نكـــس

لتقـــويـــم البـــريـــة مستطيعـــاً

وبنى الكميت جزءاً من هاشمياته على توزيع الثروة في الدولة الأموية واستخدمها لإثارة الفقراء على الدولة، وتتحسس هذه النقطة في ثورة المختار والحسين، وكافة الانفجارات الثورية في القرن الأول الهجري، وبقيت الثروة هي السبب في التدهور الاجتماعي والسياسي الذي أصاب الخلافة العباسية في القرنين الثالث والرابع. وتتركز الثورة على القسمة للمال الغير عادلة في هذه القصيدة اللامية فيقول:

فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم
ففيكم لعمري ذو أفانين مقول
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم
على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
فكيف ومن أنّى وإذ نحن خلقة
فريقان شتى تسمنون ونهزل

وقال:

كما رضيت نجلاً وسوء ولاية
لكلبتها في أول الدهر حومل
نباحاً إذا ما الليل أظلم دونها
وضرباً وتجويعاً خبال مخبل
وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا
لا جور من حكامنا المتمثل

وقال:

تحـــل دمـــاء المسلميـــن لـــديهـــم
ويحـــرم طلـــع النخلـــة المتهـــدل
وأظمـــاؤنـــا الأعشـــار فيمـــا لـــديهـــم
ومـــرتعنـــا فيهـــم إلاء وحـــرمـــل
وليـــس لنـــا فـــي الفـــيء حـــظ لـــديهـــم
وليـــس لنـــا فـــي رحلـــة النـــاس أرحـــل

الخاتمة

لم تكن رواية شعر الكميت من السهولة بمكان، فهو وثيقة عليها كثير من المآخذ السياسية والاجتماعية، ففيها نصوص لا ترتضيها اليمن ولا ترتضيها المضرية، وفيها شعر لا يرتضيه الأمويون ولا يرتضيه الهاشميون، ورغم أن للكميت راوية خاصاً به، إلا أن قسماً كبيراً من شعره أهمل أو ضاع بعضه في حياته.

وبعيد وفاته سرعان ما تفرق وتجزأ، وأسقط منه ما يخشى من روايته لسبب أو لآخر، ولا شك أن قسماً لا بأس به بقي يحمله رواة من بني أسد اعتزازاً به وبشاعره. ويكفي أن نعرف بأن الرواة كانوا حذرين جداً من رواية شعره السياسي.

ويبدو من كتب التواريخ والسيرة أن شعر الكميت تعرض بسبب الهاشميات مرة أخرى للتوزع أو الفقدان، ولوجود الرقابة على باعة الكتب، والتدخل في المنشورات التي يبيعونها، ويكفي لنا مراجعة كتاب تجارب الأمم لمسكويه (١/١٢٨) لنعرف كيفية الملابسات

السياسية والعقائدية التي أثّرت في ذلك.

وأول من أخرج شعره من رواة بني أسد وأخذ عنهم، أبي كناسة وكان قد أخذ عن جلة الكوفيين ولقي رواة الشعر وفصحاء بني أسد. وقد اتهم الكميت بتكلف الشعر أحياناً والابتار في التجربة وانعدام الانفعال إلى أن تتوفر الرغبة لذلك.

وصاحب الفكرة في تكلّف الكميت وبعده عن الشعر هو حماد الراوية، فقد جاء حماد إلى الكميت فقال: «اكتبني شعرك. قال أنت لحّان ولا أكتبك شعري! فقال له: وأنت شاعر؟ إنما شعرك خطب - الموشح (صفحة ٣٠٨) - ويفيد ابن قتيبة من هذه الملاحظة ويقسم شعر الكميت إلى قسمين: شعر يظهر فيه انفعال الشاعر، وشعر ينعدم فيه الانفعال والسيولة العاطفية ويحاول أن يعلل ذلك فيقول: «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة». الشعر والشعراء صفحة (٢٤).

ويعود فيعمم ابن قتيبة حكماً آخر فيقول: «كان الكميت شديد التكلف في الشعر كثير السرقة» وكأن ابن قتيبة ينظر في هذا إلى رأي الأصمعي في الكميت وذي الرمة، وكانا جميعاً يستكرهان الشعر».

وقد امتدح آخرون شعر الكميت لفوائده العلمية والتاريخية واللغوية، منهم: معاذ الهراء. سئل معاذ: من أشعر الناس؟ قال: من الجاهليين أم من الإسلاميين؟ قالوا: بل من الجاهليين، قال: امرؤ القيس وزهير وعبيد بن الأبرص. قالوا: ومن الإسلاميين؟ قال:

الفرزدق والجرير والأخطل، والراعي، فقيل له: يا أبا محمد ما رأيناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت! قال: ذاك أشعر الأولين والآخرين.

وهنا يقول الدكتور عبد المتعال الصعيدي: «والحق أن الكميت لم يقصر عن شعراء عصره من جهة ألفاظه وأساليبه ولكنه امتاز عليهم بالمعاني والأغراض الإسلامية والاجتماعية التي أدخلها في شعره، فكان هو الشاعر الإسلامي حقاً أما غيره من الشعراء الذين يقال لهم إسلاميون، فلا يصح أن يطلق عليهم هذا الاسم لأنه لم يكن هناك فرق بينهم وبين الشعراء الأقدمين».

وفي القرن الرابع كان شعر الكميت مجموعاً في ديوان واحد معروف للمؤلفين والظاهر أن ديوانه في القرن الرابع قد خرج من العراق إلى الخارج، وتجد أبياتاً للكميت تستخدم للشاهد والمثل في أقطار البلاد الإسلامية حتى في الأندلس (ابن عبد ربه) وشمال إفريقيا (أبي رشيق) ولا يستبعد أن تكون وصلت نسخ من ديوانه إلى هناك. وحين نتبع ذكر الديوان وأخباره نسمع به في القرن السابع عند ابن المستوفي (ت ٦٣٧ هـ) وهو قد عاش في شمال العراق وتنقّل بين إربد والموصل، وقال مرة: «لم أره في ديوانه». وفي نفس القرن يشير الصاغاني (ت ٦٥٠ هـ) إلى شعر الكميت ويقول: «لم أجده في شعره». وهذا القول صدر عنه وهو في بغداد والصاغاني قد عاش فترة من حياته في اليمن.

وآخر إشارة لديوان الكميت في القرن التاسع من العيني (ت ٨٥٥ هـ) فهو يذكر ديوان الكميت بين مراجعه في المقاصد النحوية المنشورة على هامش الخزانة. فما حدث لديوان الكميت؟

وهنا يتساءل الدكتور داوود سلوم: «هل من المعقول أن تفقد النسخ كلها ونحن نعرف من التاريخ أن هناك أكثر من نسخة في بغداد عبر القرون ونسخة في فارس في القرن الرابع ونسخة في الموصل وبغداد في القرن السابع ونسخة في حلب أو مصر في القرن التاسع؟ هل أتلفتها العصبيات؟ هل أتلفتها الأحداث، هل ما زالت مطوية في مكان ما من هذا العالم، سؤال تجيب عنه الأيام...»

وعموماً فأنني أرجو أن أكون قد وفقت في كشف جوانب من شعر الكميت بن زيد الأسدي في هذا العرض والتقييم.

دمشق ١٩٩٣/٦/٢٩

نونية الكميت بن زيد الأسدي

وشرحها لأبي رياش اليمامي

تحقيق الأستاذ الشيخ حمد الجاسر

مقدمة للأستاذ الشيخ حمد الجاسر نشرت في مجلة العرب السنة ١٣ الجزئين التاسع والعاشر، آذار نيسان ١٩٧٩ عن الكميت ونونيته... وهي مختصرة حسب الفائدة منها ومن أراد الاستزادة فقد أشرت إلى مكان وجود هذه القصيدة في آخر هذه المقالة: «... يعتبر الكميت من مكثري الشعراء، ومع ذلك فما وصل إلينا من شعره قليل. وهو قسمان الهاشميات وما جمعه الدكتور داوود سلوم في جامعة بغداد بعنوان شعر الكميت بن زيد الأسدي. وقد طبع سنة (١٩٦٩ ر) بمطبعة النعمان في النجف في أقسام ثلاثة صفحاتها نحو ٦٢٦ يحوي القسم الأول من الشعر ما جمع قديماً، وأضاف الدكتور

داوود في القسم الثاني ما يرى صحة نسبته للشاعر وخصص القسم الثالث لما نسب للكميت ولغيره من الشعراء.

ولا يُدرك جهد الدكتور داوود في الحرص على جمع ذلك الشعر إلا من طالع بإمعان كل صفحات ذلك الكتاب. يُعد الكميت من أقدم مثيري بواعث العصبية وموقدي نار الشقاق بين العدنانيين والقحطانيين، بل يعتبر أول من شبّ أوارها على ما ذكر المسعودي في مروج الذهب. . .

وبصرف النظر عن كون الكميت أجج بشعره ـ هاشمياته وقصيدته النونية ـ نار العصبية، ولكنه بهذه القصيدة أثار في نفوس شعراء الشعبين من كوامن البغض والحقد ما ظل أواره يشتعل إلى عصرنا الحاضر. . .

وقد عارض الكميت شعراء كثيرون منهم حكيم بن عياش الأعور الكلبي وسراقة البارقي، وقد وردت إشارات إليهما في شرح قصيدة الكميت وهما معاصران له: كما عارضه دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المعروف بقصيدته التي مطلعها:

أفيقـــي مـــن مـــلامـــك يـــا ظعينـــا

كفـــاك اللـــوم مـــرَّ الأربعينـــا

ومحمد بن أبي عيينة المهلبي ـ من معاصري دعبل ـ على ما ذكر الأصفهاني في الأغاني وعاصره شاعر يدعى أبا الذلفاء الحسن بن زيد فناصر الكميت بقصيدة سمّاها الدامغة مطلعها:

أمـــا تنفـــك قبـــولاً حـــزينـــاً

تحـــب البيـــض تعصـــي العـــاذلينـــا

وجاء الهمذاني، أو كما وصف نفسه «لسان اليمن» فعارض الكميت بقصيدته التي تجاوزت ستمائة بيت، افتتحها بقوله:

ألا يــــــــادار لــــــــولا تنطقينـــــــــا
فـــــإنــــا ســــائلــــون ومخبـــرونــــا

وقال فيها:

ودامغــــــة كمثـــــل الفهـــــر تهـــــوي
علــــى بيـــض فتتـــركـــه طحينـــــا
تـــرد الطـــول لـــلأســـدي عـــرضــاً
وتقلـــب منـــه أظهـــره بطـــونــــا

وقد نشرها الأستاذ محمد بن علي الأكوع، [طبعت في مصر سنة ١٣٩٧ في ٦١٣ ص] وكثرت (الدوامغ) بعد ذلك...

ويتابع الاستاذ حمد الجاسر فيقول:

«وهناك قصائد أخرى في محاكاة قصيدة الكميت مناقضة لها أمؤازرة من بحرها ورويها، وأخرى تخالفها في البحر أو القافية، لا نرى الإطالة بذكرها... ولكن مع ما لقصيدة الكميت من أثر، وما بلغته لدى الشعراء من شهرة لم تصل إلينا كاملة.

...وكل ما يعنينا هنا أننا ظفرنا بأصل للقصيدة الكميتية يضيف جديداً إلى ما وصل إلينا منها، وعثرنا على ما يقرب من ثلاثمائة بيت من شعر أحد فحول الشعراء المتقدمين، بشرح العالم اللغوي أبي

رياش اليمامي وكان ذا عناية خاصة بشعر الكميت خاصة، مع عنايته بشعر غيره. وفي هذا الشرح نصوص لغوية على جانب من الفائدة للمعنيين بالدراسات اللغوية. . .

ولم أجهد نفسي بمراجعة كتب الأدب لمقابلة أبيات القصيدة أو الاستزادة من أبيات لم ترد، لأن الدكتور داوود سلوم ـ الذي عني أشد عناية بجمع شعر الكميت ونشره لم يترك زيادة لمستزيد حسبما ذكر من المؤلفات التي رجع إليها ـ لهذا اكتفيت بالإشارة في (الهوامش) إلى ما جمع من أبيات القصيدة ورمزت لذلك بحرف (د) وهو جدير بأن يذكر عمله مقروناً بالشكر والتقدير».

والقصيدة الكميتية تبدأ بالبيت:

ألـــم تتعجبـــي مـــن ريـــب دهـــر
رأيـــت ظهـــوره قلبـــت بطـــونـــا

وتنتهي بما هذا نصه:

كبيـــت العنكبـــوت وجـــدت بيتـــاً
يمـــد علـــى قضـــاعـــة أجمعينـــا

بعض النص الموجود من القصيدة:

قال الكميت بن زيد الأسدي:

ألـــم تتعجبـــي مـــن ريـــب دهـــر
رأيـــت ظهـــوره قلبـــت بطـــونـــا
فـــإنـــك قـــد رأيـــت وإن تعيشـــي
تـــري [ويـــرى] عجـــائـــب مـــا رأينـــا

رأيـــت الخـــرس تنطـــق فـــي زمـــان
يكلـــف أهلـــه الإبـــل الطحينـــا
وبـــدّلـــت الحميـــر فمـــا فـــزعنـــا
لـــذاك مـــن النهيـــق بـــه الحنينـــا
وعطفـــت الضبـــاب أكـــف قـــوم
علـــى فتـــخ الضفـــادع مـــرثمينـــا
وذلـــك ضـــرب أخمـــاس أريـــدت
لأســـداس عســـى أن لا تكـــونـــا
أرادوا النـــاس مـــن سلفـــى نـــزار
أمـــوراً يمتنعـــن ويمتـــرينـــا
أرادوا أن تـــزيـــل خـــالقـــات
أديمهـــم يقســـن وتفتـــرينـــا
فمـــا وجـــدوهـــم إلا أديمـــاً
يـــرد مـــواســـي المتحيفينـــا
عكـــاظيـــاً أبـــوه أبـــو أيـــاد
صحيحـــاً لا عـــوار ولا دهينـــا
ولـــه جمعـــوا اللتيـــن إلـــى اللتيـــا
فـــلا حلمـــاً لقـــوه ولا عطينـــا
وكـــان يقـــال: انَّ ابنـــي نـــزار
لعَّـــلات فـــأمســـوا تـــوأمينـــا
تنبـــه بعـــد نـــومتـــه نـــزار
لهـــم بـــالملحقـــات معـــانـــدينـــا

ومنها قوله:

فتلـــك ثيـــاب إسمـــاعيـــل فينـــا
صحـــاحـــاً مـــا دنسْـــنَ ومـــا بلينـــا

وإن لنـــــا بمكـــــة أبطحيهـــــا
ومـــا بيـــن الأخـــاشـــب والحجـــونـــا

وبيـــــت الله نحـــــن لـــــه ولاة
وخـــزّان عليـــه مسلطـــونـــا

وزمـــزم والحطيـــن وكـــل ســـاق
يـــرى أهـــل الخصـــاص لـــه قطينـــا

وقال:

وكـــل خليفـــة وولّـــي عهـــد
ومنتظـــر لأمـــر المـــؤمنينـــا

وفـــي أيـــام هـــات بـ هـــاك يلقـــى
إذا رزم النـــدى متحلبينـــا

نبـــاري الـــريـــح مـــا بـــردت ونثينـــا
لأمـــوال الغـــرائـــب ضـــامنـــونـــا

لنـــا قمـــرا السمـــاء وكـــل نجـــم
تشيـــر إليـــه أيـــدي المهتـــدينـــا

وجـــدت الله إذا سمـــى نـــزاراً
وأنـــزلهـــم بمكـــة قـــاطينينـــا

لنـــا جعـــل المكـــارم خـــالصـــات
وللنـــاس القفـــا ولنـــا الجبينـــا

ومـــا ضــــربـــت هجـــان بنـــي نـــزار

فـــوالـــج مـــن فحـــول الأعجمينـــا

ومـــا حملـــوا الحميـــر علـــى عتـــاقٍ

مطهمــــــــة فيلفــــــوا مبلغينـــــا

ومـــا وجـــدت بنـــات بنـــي نـــزار

حـــلائـــل أســـوديـــن وأحمـــرينـــا

آلبـــاؤهـــن فلـــم يشـــوبـــوا

بسمنهـــم إهـــالـــة خـــاقنينـــا

وقال:

وجـــدت النـــاس غيـــر ابنـــي نـــزار

ولـــم أر مثلهـــم شـــرطـــاً ودونـــا

وإنهـــم لإخْـــوَتْنـــا ولكـــن

أنـــامـــل راحـــة لا يستـــوينـــا

هـــم أبنـــاء آدم لـــم أجـــدهـــم

إلـــى نســـب ســـواه مجمعينـــا

أأَنْـــوام تقـــول . . . بنـــي لـــؤي

قعيـــد أبيـــك أم متنـــاومـــونـــا

عـــن الـــرامـــي الكنـــانـــة لـــم يـــردهـــا

ولكـــن كـــاد غيـــر مكـــايـــدينـــا

ومـــا رب الكنـــانـــة يبتغيهـــا . . .

ككلـــب الســـوء هـــرَّ لمـــوليغينـــا

كبيـــــت العنكبـــوت وجـــدت بيتـــاً
يمـــد علـــى قضـــاعـــة أجمعينـــا[1]

---

(1) انظر هذه القصيدة كاملة حسب ما جمعه الأستاذ حمد الجاسر في كتاب شرح هاشميات الكميت لأبي رياش تحقيق الدكتور داوود سلوم والدكتور نوري حمودي القيسي طبعة عالم الكتب ١٩٨٤ بيروت. المستدرك رقم ٣ صفحة ٢٥٤.

نماذج من أشعاره وبعض ما جاء من أخباره

دخل الكميت على خالد القسري فأنشده قوله فيه:

لـــو قيـــل للجـــود مـــن حليفـــك مـــا
إن كـــان إلا إليـــك ينتســـبُ
أنـــت أخـــوه وأنـــت صـــورتـــه
والـــرأس منـــه وغيـــرك الـــذنـــبُ
أحـــرزت فضـــل النضـــال فـــي مَهَـــل
فكـــل يـــوم بكفـــك القَصَـــبُ
لـــو أن كعبـــاً وحـــاتمـــاً نُشـــرا
كـــانـــا جميعـــا مـــن بعـــض مـــا تهـــب
لا تخلـــف الـــوعـــد إن وعـــدت ولا
خلفـــك للـــراغبيـــن منقلـــب

وأمر له بمائة ألف درهم!!!

وقال يمدح يوسف بن عمر بعد قتله زيد بن علي فأنشده معرِّضاً بخالد بن عبد الله القسري:

خـــرجـــت لهـــم تمشـــي البـــراح ولـــم تكـــن
كمـــن حصنـــه فيـــه الـــرتـــاج المضَبَّـــبُ
حلفـــت بـــرب النـــاس مـــا أمُّ خـــالـــد
بـــأمـــك إذ أصـــواتنـــا الهَـــل والهَـــبُ
ولا خـــالـــد يستطعـــم المـــاء قـــائمـــاً
بعـــدلـــك والـــداعـــي إلـــى المـــوت أقـــربُ

ذكر الخبر عن سبب عزل هشام عاصماً وتوليته خالداً خراسان:

وكان سبب ذلك فيما ذكر علي عن أشياخه: أن عاصم بن عبد الله كتب إلى هشام بن عبد الملك: «أما بعد يا أمير المؤمنين فإن الرائد لا يكذب أهله وقد كان من أمر أمير المؤمنين إليَّ ما يحق به علي نصيحته وإن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى صاحب العراق لتكون موادها ومنافعها ومعونتها في الأحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتناطيء غياثه عنها». فلما مضى كتابه خرج إلى أصحابه يحيى بن حضين والمجشر بن مزاحم وأصحابهم فأخبرهم فقال له المجشر:

أبعد ما مضى الكتاب كأنك بأسد قد طلع عليك: فقدم أسد بن عبد الله بعث به هشام بعد كتاب عاصم بشهر فبعث الكميت بن زيد الأسدي إلى أهل مرو بهذا الشعر:

الا أبلــــغ جمـــاعـــــة أهـــل مـــرو
علـــى مـــا كـــان مـــن دنـــو وبُعـــدِ
رســـالــــة نــــاصـــح يهـــدي ســـلامـــا
ويـــأمـــر فـــي الـــذي ركـــوا بجَـــدِ
وأبلـــغ حـــارثـــاً عنـــا اعتـــذارا
إليـــه بـــأن مـــن قِبلـــي بجُهـــدِ
ولـــولا ذاك قـــد زارتـــك خيـــلٌ
مـــن المصـــريـــن بـــالفـــرســـان تـــردي
فـــلا تهنـــوا ولا تَـــرضـــوا بخـــف
ولا يغـــرركـــم أســـد بعهـــدِ
وكـــونـــوا كـــالبغـــايـــا ان خـــدعتـــم
وإن أقـــررتـــم ضيمـــاً لـــو غـــدِ
وإلا فـــارفعـــوا الـــرايـــات ســـودا
علـــى أهـــل الضـــلالـــة والتعـــدي
فكيـــف وأنتـــم سبعـــون ألفـــا
رمـــاكـــم خـــالـــد بشبيـــه قـــردِ
ومـــن ولـــى بـــذمتـــه رزينـــا
وشيعتـــه ولـــم يعـــرف بعهـــدِ
وقـــد غَثَّـــى قضـــاعـــة ثـــوب خِـــزي
بقتـــل أبـــي سَـــلاَمـــان بـــن سَعْـــدِ
فمهلـــك يـــا قضـــاعُ فـــلا تكـــونـــي
تـــوابـــعَ لا أصـــول لهـــا بنجـــدِ

وكنـــــت إذا دعـــــوت بنـــــيَ نـــزار

أتـــاك الـــدهـــمُ مـــن سَيْـــط وجَعْـــدِ

فجـــدُّع مـــن قضـــاعـــة كـــل أنـــف

ولا فـــازت علـــى يـــوم بمجـــدِ

قال: ورزين الذي ذكره كان خرج على خالد بن عبد الله بالكوفة فأعطاه الأمان ثم لم يوف به.

جاء في معاهد التنصيص: «فقال الكميت في خالد»:

أراهـــا وإن كـــانـــت تحَـــبُّ كـــأنهـــا

سحـــابـــة صيـــف عـــن قليـــل تقشـــعُ

حدّث إبراهيم بن عرفة الأزدي عن عبد الله بن إسحٰق بن سلام قال: أتى الكميت باب مجلس يزيد بن المهلب يمتدحه، فصادف على بابه أربعين شاعراً فقال للآذن: استأذن لي على الأمير. واستأذن له عليه فأذن له. فقال له: كم رأيت بالباب من شاعر؟ قال: أربعين شاعراً. فقال فأنت جالب التمر إلى هجر. فقال: إنهم جلبوا دقلاً وجلبت زاداً. فقال: هات زادك فأنشده:

هـــلا ســـألـــت منـــازلا بـــالأبـــرق

درســـت وكيـــف ســـؤال مـــن لـــم ينطـــق

لعبـــت بهـــا ريحـــان ريـــح عجـــا جـــة

بـــالســـافيـــات مـــن التـــراب المعتـــق

والهيـــفُ رائحـــة لهـــا بتنـــاحهـــا

طَفَـــل العشـــي بـــذي حنـــاتـــم شُـــرَّق

تصِل اللقاحَ إلى النتاجِ مربَّة
لخفوق كوكبها وإن لم يخفق
غير عهدك بالديار وما يكنْ
رهن الحوادث من جديد يخلق
إلا خوالد في المحلة بيتها
كالطيلسان من الرماد الأورق
ومشجَّجا ترك الولائد رأسه
مثل السواك ودمن كالمُهرق
دار التي تركتك غير ملومة
دنِفا فإن لم ترعِ قلبك فاشفق
قد كنت قبلُ تشوق من هجرانها
فاليوم إذ شحط المزار بها تق
والحب فيه حرارة ومرارة
سائل بذاك من تطعمَّ أو زقي
ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها
فيما مضى أحد إذا لم يعشق

حتى بلغ إلى قوله:

من قال بت أخا الهموم ومن يبت
غرض الهموم ونَصْبِهنَّ يُؤرَّقِ
بشرّتُ نفسي إذ رأيتك بالغنى
ووثِقتُ حين سمعت قولَك لي ثِقِ

وقال المرتضى: «ويشبه أن يكون الكميت أخذ من الخنساء قوله في مخلد بن يزيد بن المهلب:

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه
أحد ومثلك غالبا لم يُلْحَقِ
تتجاذبان له فضيلة سُنَّةٍ
وتلوت بعد مصليا لم تُسبَقِ
إن تنزعا وله فضيلة سبقه
فبمثل شأو أبيك لم يُتَعَلَّقِ
ولئن لحقت به على ما قد مضى
من بُعد غايته فأحجِ واخلقِ»

قال يصف ذئباً لقيه في بعض الأرض:

لقينا بها ثلبا ضريراً كأنه
إلى كل من لاقى من الناس مذنبُ
مضيعاً إذا أثرى كسوبا إذا عدا
لساعته ما يستفيد ويكسبُ
تضور يشكو ما به من خصاصة
وكاد من الإفصاح بالشكو يعربُ
فنشنا له من ذي المزاود حصة
وللزاد آسار تلقى وتوهبُ
وقلنا له هل ذاك فاستغن بالقرى
ومن ذي الأداوي عندنا لك مشربُ
وصُب له شول من الماء غابر
به كفَّ عنه الحِيبة المتحوبُ

قال يصف ذئباً لقيه في بعض الأرض:

بنــــائيـــة المنـــاهـــل ذات غـــول
لســـرحـــان الفـــلاة بهـــا ضبيـــبُ

يـــرانـــي فـــي الطعـــام لـــه صـــديقـــاً
وشـــادنـــة العســـابـــر رعبليـــبُ

إذا اشتكيـــا إلـــيَّ رأيـــت حقـــا
لمحـــرومـيـــن شفهمـــا السغـــوبُ

قال يصف القطا وهو يطلب الماء:

أو النـــاطقـــات الصـــادقـــات إذا غـــدت
بـــاسقيـــة لـــم يغـــرهـــن المطبـــبُ

جعلـــن لهـــن الخمـــس للعيـــس روحـــة
سبـــاسبهـــا مفـــضٍ إليهـــن سبسبـــبُ

فـــأبـــن قصـــار الظـــمء لـــم يستـــرثنهـــا
بمـــا فيـــه مـــن ري الصـــوادي التحبـــبُ

قال في ذكر النساء وزهدهن في ذوي الشيب:

لهـــن وللمشيـــب ومـــن عـــلاه
مـــن الأمثـــال قـــائبـــة وقـــوبُ

وقوله:

ولا حليلـــة جـــاري لســـت زاعمهـــا
تصبـــو إلـــيَّ وســـاء الصـــدق والكـــذبُ

قال في الجمد والبرد والأزمات:
وفـــي السنـــة الجمـــاد يكـــون غيثـــاً
إذا لـــم تعـــطِ درتهـــا الغضـــوبُ
وروحـــت اللقـــاح مُبَهـــلات
ولـــم تعطـــف علـــى الـــرُبـــع السَّلـــوبُ
وكـــان الســـوف للفتيـــان قـــوتـــا
تعيـــش بـــه وُهيِّـــت الـــرقـــوب
وصـــار وقـــودهـــم للحـــي أمـــا
وهـــان علـــى المخبـــأة الشحـــوبُ

وفي الحَرّ من القصيدة:
وَخـــرقٍ تعـــزف الجنـــان فيـــه
لأفئـــدة الكمـــاة لهـــا وجيـــبُ
قطعـــت ظـــلام ليلتـــه ويـــومـــا
يكـــاد حصـــى الأكـــام بـــه يـــذوبُ
قال الكميت:
ألا لا أرى الأيـــام يُقضـــى عجيبهـــا
بطـــول ولا الأحـــداث تفنـــى خطـــوبهـــا
ولا عبـــر الأيـــام يعـــرفِ بعضَهـــا
بعـــض مـــن الأقـــوام إلا لبيبهـــا

ولـــم أر قـــول المـــرء إلا كنبلـــه

بـــه ولـــه محـــرومهـــا ومصيبهـــا

ومـــا غبـــن الأقـــوام مثـــلَ عقـــولهـــم

ولا مثلهـــا كسبـــا أفـــاد كســـوبُهـــا

ومـــا غُيِّـــب الأقـــوام عـــن مثـــل خطـــة

تغيـــب عنهـــا يـــوم قيلـــت أريبهـــا

ولا عـــن صفـــاة النِّيـــق زلَّـــتْ بنـــاعـــل

تـــرامـــى بـــه أطـــوادُهـــا ولهُـــوبُهـــا

وتفنيـــد قـــول المـــرء شيـــن لـــرأيـــه

وزينـــة أخـــلاق الـــرجـــال وظـــوبهـــا

واجهـــلُ جهـــل القـــوم مـــا فـــي عـــدوهـــم

وأقبـــحُ أخـــلاق الـــرجـــال عـــزيبهـــا

رأيـــتُ ثيـــاب الحلـــم وهـــي مُكنـــة

لـــذي الحلـــم يعـــرى وهـــو كـــاس سليبهـــا

ولـــم أرَ بـــابَ الشـــر سَهْـــلا لأهلـــه

ولا طُـــرق المعـــروف وعثـــا كثيبهـــا

وأكثـــر ما تمنـــى المـــرء مـــن مطمـــأنـــه

وأكثـــر أسبـــاب الـــرجـــال كـــذوبهـــا

ولـــم أجـــد العيـــدان اقـــذاء أعيـــن

ولكنمـــا اقـــذاؤهـــا مـــا ينـــوبهـــا

مـــن الضيـــم أو أن يـــركـــب القـــومُ قـــومَهـــم

رِدافـــا مـــع الأعـــداء ألبـــا الـــوبُهـــا

رمتنـــــي قــــريـــش عـــــن قِســيِّ عـــــداوة
وحِقــدِ كــأن لــم تــدرِ أنـــي قــريبهـــا
تــــوفُـــــع حـــولـــي تـــارة وتصيبنـــــي
بنبـــلِ الأذى عفـــواً جــزاهـــا حسيبهـــا
وكــــان سِـــواغـــاً إذ عثــرت بُغصـــة
يضيـــق بهـــا ذَرْعـــا ســواهـــا طبيبهـــا
فكــــم أرعَ ممـــا كـــان بينـــي وبينهـــا
ولــم تــك عندي كــالــدَّبُــور جنــوبهـــا
ولـــم أجهـــل الغيـــث الـــذي نشــأت بـــه
ولـــم أتضــرع أن يجـــيء غُضُـــوبُهـــا
وأصبحـــت مـــن أبـــوابهـــم فـــي خطيطـــة
ولا ذنـــب لـــلأبـــواب مـــرت جـــديبهـــا
ولـــلأبعـــد الأقصـــى تـــلاع مـــريعـــة
أقـــام بهـــا مثـــل السنـــام عسيبهـــا
رمتنـــي بـــالآفـــات مـــن كـــل جـــانـــب
وبـــالـــذرِّ بيَّـــا مُـــرْد فهـــر وشيبهـــا
بـــلا ثبـــت إلا أقـــاويـــل كـــاذب
يُحَـــرِّبُ أســـد الغـــاب كفتـــا وثـــوبهـــا
لعمـــر أبـــي الأعـــداء بينـــي وبينهـــا
لقـــد صـــادفـــوا آذان سمـــع تجيبهـــا
فلـــن تجـــد الآذان إلا مطيعـــة
لهـــا فـــي الـــرضـــا أو ســاخطـــاتِ قلـــوبُهـــا
أفـــي كـــل أرض جئتهـــا أنـــا كـــائـــن
لخـــوف مـــن بنـــي فهـــر، كـــأنـــي غـــريبهـــا

وإن كنت في جِذْم العشيرة أقبلت
علىَّ وجوه القوم كرها قطوبها

بني ابنةِ مرًّا! أين مُرَّة عنكم
وعنا التي شعبا تصير شعوبُها

وأين ابنها عنا وعنكم وبعلُها
خزيمةُ والأرحام وعثا جؤوبها

إذا نحن منكم لم ننل حق أخوة
على أخوة لم يخشِ غشا جؤوبها

فأيةُ أرحام يُعاذُ بفضلها
وأيةُ أرحام يؤدى نصيبها

لنا الرَّحِمُ الدنيا وللناس عندكم
سِجالُ رغيبات اللُّهى وذَنُوبها

ملأتم حياض المُلحِمين عليكم
وآثاركم فينا تَضِب ندوبُها

ستلقون ما أحببتم في عدوكم
عليكم إذا ما الخيل ثار غضوبُها

فلم أر فيكم سيرة غير هذه
ولا طُعْمةً إلا التي لا أعيبها

ملأتم فجاج الأرض عدلاً ورأفةً
ويعجز عني - غيرَ عجز - رحيبها

قطعتم لساني عن عدو تنالكم
عقاربُه تلداغُها ودبيبها

فـــأصبحـــت قَـــدمـــا مفحمـــا وضـــريبتـــي
محـــالِـــفُ إفحـــام وَعِـــيّ ضـــريبُهـــا

فـــأرحـــامكـــم لا تطلبنكـــم فـــإنهـــا
عَـــوَاتـــمُ لـــم يهجـــعْ بليـــل طليبهـــا

إذا نبتـــت ســـاق مـــن الشـــر بيننـــا
قصـــدتـــم لهـــا حتـــى يجـــزّ قضيبهـــا

لتـــركنـــا قُـــربـــى لـــؤيّ بـــن غـــالـــب
كســـامـــةَ إذ أودت وأودى عتيبهـــا

فـــأيـــن بـــلاء الـــذيـــن عنـــا وعنكـــم
لكـــل أكـــف حـــاقنـــات ضـــريبهـــا

ولكنكـــم لا تستثيبـــون نعمـــةً
وغيـــركـــم مـــن ذي يـــدٍ يستثيبهـــا

وإن لكـــم للفضـــل فضـــلاً مبـــرّزا
يقصّـــرُ عنكـــم بـــالسُعـــاة لغـــوبهـــا

جمعنـــا نفـــوســـاً صـــاديـــاتٍ إليكـــم
وأفئـــدة منـــا طـــويـــلا وجيبهـــا

فقـــائبـــة مـــا نحـــن يـــومـــاً وأنتـــم
بنـــي عبـــد شمـــس أن تفيئـــوا وقـــوبهـــا

وهـــل يعـــدُوَنْ بيـــنُ الحَبيـــبِ فـــراقـــه
نعـــمْ، داءُ نفـــسٍ أن يبيـــن حبيبهـــا

ولكـــن صبـــراً عـــن أخ لـــك ضـــائـــر
عـــزاء إذا مـــا النفـــس حـــنَّ طـــروبهـــا

رأيـــت عِـــذابَ المـــاء أن حيـــل دونـــه
كفـــاك لمـــا لا بـــدَّ منـــه شـــريبهـــا

وإن لـــم يكـــن إلا الأسنـــة مـــركـــب
فـــلا رأي للمحمـــول إلا ركـــوبهـــا
يشـــوبـــون لـــلأقصين معســـول شيمـــة
فـــأنّـــى لنـــا بـــالصـــاب أنـــى مشـــوبهـــا
كلـــوا مـــا لـــديكـــم مـــن سَنـــام وغـــارب
إذا غُيّبـــت دودان عنكـــم غُيـــوبُهـــا
ستـــذكـــرنـــا منكـــم نفـــوسٌ وأعيـــنٌ
ذوارف لـــم تضنـــن بـــدمـــع غُـــروبهـــا
إذا ودَّأتنـــا الأرض إن هـــي وأدت
وافـــرخ مـــن بيـــن الأمـــور وَقُـــوبُهـــا
تـــركنـــا مطـــافَ الشعـــب وهـــو محلُّنـــا
لكـــم ومطـــاخ الـــواجبـــات جُنـــوبهـــا
وَمشعـــر جَمْـــع والمغـــاض عشيـــة
إذا حـــال دون الشمـــس قصـــرا مغيبهـــا
ومَـــرْسَـــى حـــراءٍ والأبـــاطـــح كلُّهـــا
وحيـــث التقـــت أعـــلام ثـــور وَلُـــوبهـــا
ومـــورد خيلنـــا عكـــاظ كـــأنهـــا
بـــواكيـــر طيـــر بـــات قِيَّـــا عـــدوّهـــا
وقبـــرَ أبـــي داود حيـــث تشققـــت
عليـــه المـــآلـــي عصبُهـــا وسبيبهـــا
تهتكهـــا البيـــض الشغـــاميـــم حـــرة
يهيـــج اكتئـــاب الجـــن وهنـــا كئيبهـــا

بنــــات نبـــي الله وابـــــن نسيبــــة
يكــــاد يـــزيــل الــراسيـــات نحيبهـــا
قـــواطِـــنُ بيـــت لـــه هُـــنَّ حمَـــامـــة
بــزَمْـــزَمَ يـــوم الـــوردِ يلقـــى مهيبُهـــا
بســفح أبــي قـــابــوس ينــدبــن هـــالكـــا
يخفِّـــض ذات الـــولـــد عنهـــا وقـــوبهـــا
أبـــونـــا الـــذي سَـــنَّ المئيـــن لقـــومـــه
ديـــات وعـــداهـــا سلـــوفـــاً منيبهـــا
وسلَّمهـــا فـــاستـــوثـــق النـــاس للتـــي
يعلـــل ممـــا ســـنَّ فيهـــم جـــدوبهـــا
غنـــائـــم لـــم تجمـــع ثـــلاثـــاً وأربعـــاً
مســائـــل بـــالألحـــاف شتـــى ضُـــروبُهـــا
فلمـــا نفيتـــم عـــن تهـــامـــة كلُّهـــا
بيـــوتـــا هـــي الأدنـــى إليكـــم نسيبُهـــا
فـــزعتـــم لنـــا فـــي كـــل شـــرق ومغـــرب
بنـــا ولنـــا أظفـــاركـــم وعلُـــوبُهـــا
فـــأيـــن ســـواكـــم أيـــن لا أيـــن مـــذهـــب
وهـــل ليلـــة قَمْـــراء نـــاجِ طليبُهـــا
يعـــاتُبنـــي فـــي النصـــح فهْـــرٌ بـــن مـــالـــك
ولـــم تَـــدر مـــا يخفـــي الضميـــر عيـــوبُهـــا
ولـــو مـــات مـــن نضْـــح لقـــوم أخـــوهـــم
لقـــد لقِيَتنـــي بـــالمنـــايـــا شعـــوبهـــا
ولـــو كـــان تخليـــد لـــذي النُصـــح نُصحـــه
لملئـــت دنيـــا مـــا أقـــام عسيبهـــا

أطيِّب نفسي عن لؤي بن غالب
وهيهات مني ثم هيهات طيبُها
أبوها أبي الأدنى وأمي أمُّها
فمن أين رابتني وكيف أريبها
إذا سِمْتُ نفسي عن بني النَّضر سلوةً
عصتني فلم يسلسْ لطوع جنيبُها
الا بأبي فهر وأميَ مالك
ولو كثرت عندي وفيَّ ذُنوبُها
هم صفوة اللّهِ الخيارُ وفيهم
تأرَّثُ نيران الهُدى وثقوبُها
عليهم ثياب النَّضْر وابنيه مالك
وفهر صِحاحا لم يُدَنَّسْ قشيبها
فدىً لهم أمي وأمهم لهم
إذا البيض أبدتْ ما توارى أتوبُها
لهم مشية لا يحدثُ الحربُ غيرها
إذا ما نحور القوم بلَّ خضيبها
بمشيتهم طالتْ قصار سيوفهم
حِفاظا إذا ما الحرب شب شبوبها
يزيدهم عَجم الكرابة نجدة
وعزّاً إذا العيد ان خان صليبُها
لهاميمُ أشرافٌ بهاليل سادةٌ
إذا السنة الشهباء عمَّ سغوبها

مغاوير أبطالٌ مساعيد في الوغى
إذا الخيل لم تثبت وَفرَّ أريبها
قدورهم تغلِي أمام فنائهم
إذا ما الثريا غاب عصرا رقيبها
إذا ما المراضغ الخماس تأوهت
ولم تَندَ من أنواء كحل جيوبها
وروحت الأشوال والشمس حيَّة
حدابير حُذباً كالحقائق نيبها
وأسكتت درَّ الفحل واسترعفت به
حراجيج لم تلقح كشافاً سلوبها
وبادرها دفء الكنيف ولم يُعن
على الضيف ذي الصحن المسنَّ حلوبُها

وقال الكميت ايضاً:

طـــربـــت وهـــل بـــك مـــن مطـــرب
ولـــم تتصـــاب ولـــم تلعـــب
صبـــابـــة شـــوقٍ تهيـــج الحليـــم
لا عـــار فيهـــا علـــى الأشيـــب .
ومـــا أنـــت إلا رســـوم الـــديـــار
ولـــو كـــن كـــالخلـــل المـــذهـــب
ولا ظُعـــن الحَـــيّ إذ أدلجـــت
بـــواكـــر كـــالإجـــل والـــرَّبـــرب
ولســـتَ تصـــبُّ الـــى الظـــاعنيـــن
اذا مـــا خليلـــك لـــم يصبـــب
فـــدع ذكـــر مـــن لســـت مـــن شـــأنـــه
ولا هـــو مـــن شـــأنـــك المنصـــب
وهـــات الثنـــاء لأهـــل الثنـــاء
بـــأصـــوب قـــولـــك فـــالأصـــوب
بنـــي هـــاشـــم فهـــم الأكـــرمـــون
بنـــي البـــاذخ الأفضـــل الأطيـــب
وإيـــاهـــم فـــاتخـــذ أوليـــا
ء مـــن دون ذي النســـب الأقـــرب
وفـــي حبّهـــم فـــأتهـــم عـــاذلاً
نهـــاك وفـــي حبلهـــم فـــأحطـــب
أرى لهـــم الفضـــل والســـابقـــات
ولـــم أتمـــن ولـــم أحســـب

مســـاميـــح بيـــض كـــرام الجـــدود
مـــراجيـــح فـــي الـــرهـــج الأصهـــب
إذا ضـــمَّ فـــي الـــروع يـــوم الهيـــا
ج أخـــر وأقـــدم الـــى أرحـــب
مطـــاعيـــم حيـــن تـــروح الشمـــال
بشفـــان قطقطهـــا الأشهـــب
مـــواهيـــب للمنفـــس المستـــزاد
لأمثـــالـــه حيـــن لا مـــوهـــب
لحـــارم غُـــر حســـان الـــوجـــوه
مطـــاعيـــم للطـــارق الأجنـــب
مقـــاري للضيـــف تحـــت الظـــلام
مـــواري للقـــادح المُثقـــب
إذا المـــرخ لـــم يـــور تحـــت العفـــار
وضـــنَّ بقـــدرٍ فلـــم تعقـــب
وردت ميـــاههـــم صـــاديـــاً
بحـــائمـــة ورد مستعـــذب
فمـــا حـــلأتنـــي عصـــيُّ السقـــاة
ولا قيـــل يـــا ابعـــد ولا يـــا اغـــرب
ولكـــن بخـــاجـــاة الأكـــرميـــن
بحظـــي فـــي الأكـــرم الأطيـــب
لئـــن طـــال شـــربـــي لـــلآجنـــات
لقـــد طـــاب عنـــدهـــم مشـــربـــي
اجـــل واصـــدر عـــن غيـــرهـــم
بـــريّ المحـــلاّ والمـــوأب

أنــــــاسٌ إذا وردت بحـــــرهـــــم
صـــوادي الغـــرائـــب لـــم تضـــرب
وليـــس التفحـــش مـــن شـــأنهـــم
ولا طيـــــرة الغضـــــب المغضـــــب
ولا الطعـــــن فـــــي أعيـــــن المقبليـــــن
ولا فـــي قفـــا المـــدبـــر المـــذنـــب
نجـــــوم الأمـــــور اذا ادلمســـــت
بظلمــــــاء ديجـــــورهـــــا الأشهـــــب
وأهـــل القـــديـــم وأهـــل الحـــديـــث
إذا نقضـــــت حبـــــوة المحتبـــــي
وشجـــــو لنفســـــي لـــــم أنســـــه
بمعتـــــرك الطـــــف فـــــالمجنـــــب
كـــأن خـــدودهـــم الـــواضحـــا
ت بيـــــن المجـــــر الـــــى المسحـــــب
صفـــائـــح بيـــضٌ جلتهـــا القيـــو
ن ممـــا تخيّـــرن مـــن يثـــرب
أؤمـــــل عـــــدلاً عســـــى أن أنـــــا
ل مـــا بيـــن شـــرق الـــى مغـــرب
رفعـــت لهـــم نـــاظـــري خـــائـــف
علـــى الحـــقّ يقـــدع مستـــرهـــب

الهاشميات

(١)

مَـــــــنْ لِقلْـــــــبٍ متيَّــــــمٍ مُستهـــــام
غيْــــــرِ مـــــا صبـــــوة ولا أحْـــــلامِ

طـــــارقـــــاتٍ ولا ادِّكـــــار غـــــوان
واضحـــــاتِ الخـــــدودِ كـــــالآرامِ

بـــــل هَـــــوَايَ الـــــذي أجِـــــنُّ وأبْـــــدي
لبنـــــي هـــــاشـــــمٍ فُـــــروعِ الأنـــــامِ

للقـــــريبيـــــنَ مـــــن نـــــدىً والبعيـــــد يـ
ـــــن مـــــن الجَـــــوْرِ فـــــي عُـــــرى الأحكَـــــامِ

والمصيبيـــــنَ بـــــابَ مـــــا أخطـــــأ النَّـــــاس
ومُـــــرســـــي قـــــواعـــــدِ الإســـــلامِ

والحمـــــاةُ الكُفـــــاةُ فـــــي الحَـــــرْبِ ان
لـــــفَّ ضِـــــرامـــــاً وَقـــــودُهـــــا بضـــــرامِ

والغُيــوثُ الــذيــن إن أمْحَــلَ النّـــا
سُ فمـــأوَى حـــواضِـــن الأيتـــامِ
والـــوُلاةِ الكُفـــاةِ لـــلأمـــرِ إن طـــرّ
ق يَثْنـــاً بمجهـــضٍ أو تمـــامِ
والأُســـاةِ الشُفـــاةِ للـــداءِ ذي الـــرِيـ
ـــةِ والمـــدرِكيـــن بـــالأوْغَـــامِ
والـــروَايـــا التـــي بهـــا يحمـــلُ النَّـــا
سُ وسُـــوقَ المطبقَـــاتِ العِظـــامِ
والبحـــورِ التـــي بهـــا تكشـــفُ الحِـــرَّ
ة والـــداءُ مـــن غليـــلِ الأوامِ
لكثيـــريـــن طيبيـــن مـــن النَّـــا
سِ وبَـــرّيـــنَ صـــادقيـــن كـــرامِ
وَأضِحِـــي أَوْجِـــهِ كـــريمـــي جُـــدودِ
واسِطـــي نسبـــةِ لهـــام فَهـــامِ
للـــذُرى فـــالـــذرى مـــن الحسـب الثّـــا
قـــبِ بيـــنَ القمقـــام فـــالقمقـــامِ
راجحـــي الـــوزنِ كـــامِلـــي العـــدلِ فـــي
السيـــرةِ طبيّـــن بـــالأمـــورِ الجشـــامِ
فضّلـــوا النـــاسَ فـــي الحَـــدِيـــثِ حَـــديثـــاً
وقـــديمـــاً فـــي أولِ القـــدّامِ
مستفيـــديـــن متلفيـــن مـــواهيـ
ـــبَ مطـــاعيـــمَ غيـــرِ مـــا أبـــرامِ

مستعفّيــــــن مُفْضِليــــن مسَــــامِيـ
ـــحَ مــراجيــحَ فــي الخميــسِ اللُّهــامِ
ومــــداريـــكَ للــــذُّحــولِ متــاريـ
ـكَ وإن أُحْفِظـــوا لعُــورِ الكـــلامِ
لا حُبــــاهـــم تُحَــلُّ للمنطــقِ الشَّغـ
ـــب ولا لِلّطَــامِ يــوم اللّطـــامِ
أبطحيّـــنَ أَرْيَحيّـــن كـــالأنْـ
جُـــم ذاتِ الـــرُّجـــومِ والأعـــلامِ
غـــالبيّـــنَ هـــاشمَيّــن فـــي العلـ
ــم رَبَـــوا مـــن عطيّـــة العـــلاّمِ
ومصَفّيــنَ فـــي المنَـــاســـبِ محضيـْ
ـنَ خِضميــنَ كــالقُــرومِ الســوامــي
وإذا الحـــربُ أومَضَـــتْ بسنـــا البـــر
قِ وســـارَ الهُمـــامُ نَحـــوَ الهُمـــامِ
ورأيـــتُ الشــريـــجَ يحنـــنّ النبْـ
ـــعَ بمكســـورةِ الظُّهـــارِ اللُّـــؤامِ
فهُـــمُ الأُسـدُ فـــي الـــوَغـــى لا اللـــواتـــي
بيـــن خيـــس العـــريـــنِ والآجـــامِ
أســـدُ حـــربٍ غيـــوثُ جَـــدْبٍ بهـــاليْـ
ـــلُ مقـــاويـــلُ غيـــرُ مـــا أفْـــدامِ
لا مَهَـــاذِيـــرَ فـــي النّـــدِي مكـــاثيْـ
ـــرَ ولا مُصْمتيـــن بـــالإفحـــامِ
ســـادة ذادةِ عـــن الخـــرّدِ البيـ
ضِ إذا اليـــومُ كـــان كـــالأيـــامِ

ومغـــايـــرَ عنـــدهُـــنَّ مغـــاوِيـ
ـــرَ مسَـــاعيـــرَ ليلـــةَ الإلجـــامِ
لا معـــازيـــلَ فـــي الحـــروب تنـــابيـ
ـــلَ ولا رائميـــن بَـــوّ اهْتضـــامِ
وهـــم الآخـــذونَ مـــن ثِقـــة الأمـر
ـــرِ بتقـــواهُـــمُ عُـــرىً لا انفِصـــامِ
والمصيبـــون والمجيبـــون للـــدّعْـ
ـــوةِ والمحـــرِزون خَصْـــلَ التـــرامـــي
ومُحِلـــونَ مُحْـــرمـــون مُقِـــرُّو
نَ لِحِـــلٍّ قـــرارةٌ وحـــرام
ســـاســـةٌ لا كمـــن يـــرى رِعيـــة النّـــا
سِ ســـواءً ورِعيـــة الأنعـــامِ
لا كعَبْـــدِ المليـــكِ أو كـــوليـــدِ
أو سليمـــانَ بعـــدُ أو كهشـــامِ
رأيُـــه فيهـــم كـــرأي ذوي الثُّلَّـــةِ
فـــي الثـــائجـــاتِ جُنْـــحَ الظـــلامِ
جُـــزُّ ذي الصـــوفِ وانتقـــاءٌ لـــذي
المخْـــةِ وانْعَـــق ودغـــدَعـــا بـــالبِهـــامِ
مـــن يمُـــت لا يمُـــتْ فقيـــداً ومـــن يحـ
ـيـــىَ فـــلا ذو إلٍ ولا ذو ذمـــامِ
فهُـــمُ الأقـــربـــون مـــن كـــل خيـــرِ
وهـــمُ الأبعـــدُون مـــن كـــل ذامِ

وهــم الأرْأفــون بــالنــاس فــي الــرَّأ
فــةِ والأحلَمــون فــي الأحــلامِ
بسطــوا أيــديَ النّــوالِ وكفُّــوا
أيــديَ البغــيِ عنهــم والعُــرامِ
أخــذوا القصْــدَ واستقــامــوا عليــه
حيــنَ مــالــتْ زوامِــلُ الآثــامِ
عِيــزاتُ الفعَــالِ والحســبِ العَــوْ
دِ إليهــم محطــوطــةُ الأعكــامِ
أُسْــرةُ الصّــادقِ الحــديــث أبــي القــا
ســمِ فــرعِ القُــدامــسِ القــدَّامِ
خيــرِ حَــيّ وميــتٍ مــن بنــي آ
دمَ طُــرَّاً مــأمــومِهــم والإمــامِ
كــأن ميتــاً جنــازةً خيــرُ ميــتٍ
غيَّبَتْــهُ حفــائــرُ الأقــوام
وجنينــاً ومــرضِعــاً ســاكــنَ المهْـ
ــدِ وبعــدَ الــرضــاع عنــد الفطــامِ
خيــرُ مُسْتــرْضَــعٍ وخيــرُ فطيــمِ
وجنيــنِ أُقِــرَّ فــي الأرحــامِ
وغــلامــاً ونــاشئــاً ثــم كهــلاً
خيــرُ كهــلِ ونــاشــيء وغــلام
أنقــذ اللَّــهُ شِلْــوَنــا مــن شَفــا النـ
ــارِ بــه نعمــة مــن المنعــام

لـــو فـــدى الحـــي ميتـــا قلـــت نفســـي
وبنـــيٌّ الفـــدى لتلـــك العظـــامِ
طيـــب الأصـــلِ طيـــب العـــودِ فـــي البنـ
ـــيـــة والفـــرعِ يثـــربـــيٌّ تِهـــامـــي
أبطحـــــيٌّ بمكـــــةَ استثقـــب اللـ
ـــهُ ضيـــاءَ العمَـــى بـــه والظـــلامِ
وإلـــى يثـــربَ التحـــولَ عنهـــا
لمقـــام عـــن غيـــر دار مُقـــامِ
هجـــرةٌ حُـــوِّلـــت مـــن الأوس والخـــز
رجِ أهـــل الفَسيـــلِ والآطـــامِ
غيـــر دنيـــا مُحَـــالفـــاً واســـمَ صـــدقٍ
بـــاقيـــاً مجـــدُهُ بقـــاءَ السَّـــلامِ
ذو الجنـــاحيـــنِ وابـــنُ هـــالـــةَ منهـــم
أســـدُ الله والكمِـــيُّ المُحَـــامِـــي
لا ابـــنُ عـــمٍ يُـــرَى كهـــذا ولا عَـ
ـــمٌّ كهـــذاك سيّـــد الأعمـــامِ
والـــوصـــيُّ الـــذي أمـــالَ التجُـــو
بـــيُّ بـــه عـــرشَ أمـــةٍ لانهـــدامِ
كـــان أهـــلَ العفـــاف والمجـــدِ والخَيـ
ـــرِ ونَقْـــضِ الأمـــورِ والإبـــرامِ
والـــوصـــيُّ الـــولـــيُّ والفـــارسُ المُعْـ
ـلِـــمُ تحـــت العجـــاجِ غيـــر الكهـــامِ
كـــم لـــه ثـــم كـــم لـــه مـــن قتيـــلٍ
وصـــريـــعٍ تحـــت السنـــابـــك دامـــي

وخميـــــــسٍ يلُفُّــــــه بخميـــــــسٍ
وفئـــــامٍ حـــــواهُ بعـــــدَ فِئـــــامِ
وعميـــــدٍ مُتَـــــوَّجٍ حُـــــلَّ عنـــــهُ
عُقْـــــدُ التَّـــــاجِ بـــــالصنيـــــعِ الحســـــامِ
قَتلـــــوا يـــــومَ ذاكَ إذ قتلـــــوهُ
حَكَمـــــاً لا كغـــــابـــــرِ الحُكَّـــــامِ
راعيـــــاً كـــــانَ مُسْجحـــــاً ففقـــــدْنـــــا
هُ وفقـــــدُ المُسيـــــمِ هُلْـــــكُ السَّـــــوامِ
نـــــالنـــــا فَقْـــــدُه ونـــــالَ ســـــوَانَـــــا
بـــــاجتـــــداعٍ مـــــنَ الأنـــــوفِ اصطـــــلامِ
وأشِتَّـــــتْ بنـــــا مصـــــادرُ شتَّـــــى
بعـــــدَ نهـــــجِ السبيـــــلِ ذي الآرامِ
جـــــرَّدَ السيـــــفَ تـــــارتَيْـــــنِ مـــــنَ الـــــدَّهـ
ـــــرِ علـــــى حيـــــنِ دِرَّةٍ مـــــن صـــــرامِ
فـــــي مُـــــريـــــديـــــنَ مُخطئيـــــنَ هُـــــدَى اللَّـ
ـــــهِ ومُستقسميـــــنَ بـــــالأزلامِ
ووصـــــيُّ الـــــوصـــــيِّ ذي الخطـــــةِ الفصـ
ـــــلِ ومُـــــرْدي الخصـــــومِ يـــــومَ الخصـــــامِ
وقتيـــــلٌ بـــــالطَّـــــفِّ غـــــودِرَ منـــــهُ
بيـــــنَ غَـــــوْغـــــاءِ أمَّـــــةٍ وطَغـــــامِ
تـــــركَـــــبُ الطيـــــرَ كـــــالمجـــــاسـد منـــــه
مـــــعَ هـــــابٍ مـــــنَ التـــــرابِ هيـــــامِ
وتطيـــــلُ المـــــرزَّءاتُ المقـــــالـيـ
ـــــتُ عليـــــهِ القعـــــودَ بعـــــدَ القيـــــامِ

يتعـــــرّفــــن حـــــرّ وجـــــهِ عليـــــه

عقبـــةُ الســـروِ ظـــاهـــراً والـــوَســـامِ

قتــــــــــل الأذعِيـــــــاءُ إذ قتلـــــوهُ

أكـــرَمَ الشـــاربيـــن صـــوْب الغمـــام

وسمِـــــيّ النبـــيِّ بـــالشُّعـــب ذي الخيـ

ــفِ طـــريـــدُ المُحِـــلُّ بـــالأحـــرامِ

وأبـــو الفضـــلِ إنَّ ذِكـــرهُـــم الحُلـ

ــوُ بفـــيَّ الشُّفـــاءُ لـــلأسقـــامِ

فيهـــمُ كنـــتُ للبعيـــدِ ابـــنَ عـــمٍّ

واتّهمـــتُ القـــريـــبَ أيَّ اتهـــامِ

صـــدَقَ النـــاسَ فـــي حنيـــنَ بضـــربٍ

شـــابَ منـــه مفـــارِقُ القمقـــامِ

وتنـــاولـــت مـــن تنـــاوَلَ بـــالغيـ

ـبـــةِ أعـــراضهُـــم وقـــلَّ اكتتـــامـــي

ورأيـــتُ الشـــريـــفَ فـــي أعيـــنِ القَـــوْ

م وضيعـــاً وقـــلَّ منـــهُ احتشـــامـــي

مُعلنـــاً للمعـــالنيـــن مُسِـــرّاً

للمســـرِّيـــن غيـــر دحـــض المقـــامِ

مبـــديـــاً صفحتـــي علـــى المـــرقـــبِ المعـ

ـلَـــم بـــاللَّـــهِ قـــوّتـــي واعتصـــامـــي

مـــا أبـــالـــي إذا حفِظـــتُ أبـــا القـــا

ســـم فيهـــم مـــلامـــةَ اللـــوّامِ

مـــا أُبـــالـــي ولـــن أبـــالـــي فيهـــم
أبـــداً رغـــم ســـاخطيـــن رِغَـــامِ
فهُـــمُ شيعتـــي وقِسْمـــي مـــن الأمّـ
ـــةِ حسبـــي مـــن ســـائـــرِ الأقسامِ
إن أمُـــتْ لا أمـــت ونفســـي نفســـا
نِ مـــن الشَّـــكِّ فـــي عَمـــىً أو تعـــامـــي
عـــادِلاً غيـــرهـــم مـــن النـــاس طَـ
ـــراً بهـــمُ لا هَمـــامَ بـــي لا همـــامِ
لـــم أبِـــع دينـــي المسَـــاومَ بـــالوكـ
ـسِ ولا مُغليـــاً مـــن السُّـــوَّامِ
أخلـــص الله لـــي هـــوايَ فمـــا أغْـــرِ
قُ نَـــزْعـــاً ولا تطيـــشُ سهـــامـــي
ولِهـــتْ نفســـي الطـــروبُ إليهـــم
ولهـــاً حـــالَ دون طعـــم الطعـــامِ
ليـــت شعـــري هـــل ثـــمَّ هـــل آتِيَنْهُـــم
أم يحـــولَـــنَّ دون ذاك حِمـــامـــي
إنْ تَشيَّـــع بـــي المـــذكـــرة الـــوَجـ
ـــنـــاءُ تنفـــي لُغـــامهـــا بلغـــامِ
عنتـــريـــس شمِلَّـــةٌ ذاتُ لـــوثٍ
هَـــوْجـــلٌ ميلَـــعٌ كتـــومُ البغـــامَ
تصـــلُ السهـــب بـــالسهـــوب إليهـــم
وصْـــلَ خـــرقـــاء رُمَّـــةً فـــي رِمـــامِ
ردَّهُـــنَّ الكـــلالُ حُـــدبـــاً حَـــدابيْـ
ـــرَ وحـــدُ الإكـــام بعـــد الإكـــامِ

فـي حـراجيـعَ كـالحِنـيّ مجـاهيـ

ـضَ يخدن الـوجيـفَ وخـد النعَـامِ

يكتنفـن الجهيـض ذا الـرّمـقِ المعـ

جَـلِ بعـد الحنيـنِ بـالإرزامِ

مُنكـراتٍ بـأنفُـس عـارِفـاتٍ

بعُيـونٍ هـوامِـلِ التَّسجـامِ

مـا أُبـالـي إذا أُنخْـنَ إليهـم

نقـب الخُـفِّ واعتِـراقِ السنـامِ

يقـضِ زَوْرٌ هنـاك حـقَّ مَـزُوريـ

ـنَ ويخـبُ السَّـلام أهـلُ السـلامِ

(٢)

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب
ولا لعباً مني أذو الشيب يلعب
ولم يلهني دار ولا رسم منزل
ولم يتطربني بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه
أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية
أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى
وخير بني حواء والخير يطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم
إلى الله فيما نابني أتقرّب
بني هاشم رهط النبي فإنني
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
حفظت لهم مني جناحي مودة
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وكنت لهم من هؤلاك وهؤلا
مجناً على أني أذمُ وأقصب
وأرمي وأرمي بالعداوة أهلها
وإني لأذوى فيهم وأؤنب
فما ساءني قول امرىءٍ ذي عداوة
بعوراء فيهم يجتديني فيجدب
فقل للذي في ظل عمياء جونةٍ
يرى الجور عدلاً أين لا أين تذهب
بأي كتاب أم بأية سنة
ترى حبهم عاراً عليَّ وتحسبُ
أألسلمُ ما نأتي به من عداوة
وبغض لهم لا جيرِ بل هو أشجب
ستقرع منها سن خزيان نادم
إذا اليوم ضم الناكثين العصبصب
فما لي إلا آل أحمد شيعة
وما لي إلا مشعب الحق مشعب
ومن غيرهم أرضى لنفسي شيعة
ومن بعدهم ولا من أجلُ وأرجب
أريب رجالاً منهم وتريبني
خلائق مما أحدثوا هنّ أريب
إليكم ذوي آل النبي تطلعت
نوازع من قلبي ظماء وألبب

ومنها يقول:

هم شهدوا بدراً وخيبر بعدها
ويوم حنين والدماء تصبب
وهم رئموها غير ظأر وأشبلوا
عليها بأطراف القنا وتحدبوا
فإن هي لم تصلح لحي سواهم
فإن ذوي القربى أحق وأقرب
وإلا فقولوا غيرها تتعرفوا
نواصيها تردي بنا وهي شزب

ومنها قوله:

ألم ترني من حب آل محمد
أروح وأغدو خائفاً أترقب
كأني جان محدث وكأنما
بهم يتقى من خشية العُرَّ أجرب
على أي جرم أم بأية سيرة
أعنف في تقريظهم وأؤنب
أناس بهم عزت قريش فأصبحوا
وفيهم خباء المكرمات المطنب

وجاء في روضات الجنات: «دخل الكميت على أبي جعفر الباقر وهو يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم
لم يبق إلا شامت أو حاسد
وبقي على ظهر البسيطة واحد
فهو المراد وأنت ذاك الواحد»

وقال في أمالي المرتضى:

«أشعر أبيات قيلت في الحسرة والدعاء... أولها قول الكميت بن زيد:

إن يحسدون فإني لا ألومهم
قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام بي وبهم ما بي وما بهم
ومات أكثرنا غيظاً بما يجد
أنا الذي يجدوني في حلوقهم
لا أرتقي صدراً منها ولا أرد
لا ينقص الله حسادي فإنهم
أسرُّ عندي من اللائي له الودد»

وقال الكميت أيضاً:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا
أرضى بشتم أبي بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكاً
بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به
يوم القيامة من عذرٍ إذا اعتذرا

إن الـــــرســــــول رســـــول الله قـــــال لنــــا

إن الـــــولـــــي علـــــيٌ غيــــر مـــــا هجـــــرا

فــــي مـــــوقـــــف أوقـــــف الله النبـــــي بـــــه

لـــــم يعطــــه قبلـــــه مـــــن خلقـــــه بشــــرا

هـــــو الإمـــــام إمـــــام الحـــــق نعـــــرفـــــه

لا كـــــاللـــــذيـــــن استـــــزلانـــــا بمـــــا ائتمـــــرا

مـــــن كـــــان بـــــرغمـــــه رغمـــــاً فـــــدام لـــــه

حتـــــى يـــــرى أنفـــــه بـــــالتـــــرب منعفـــــرا

فهرس المصادر والمراجع

الأحكام السلطانية   الماوردي

أخبار شعراء الشيعة   المرزباني

أسد الغابة في معرفة الصحابة   ابن الأثير الجزري   دار إحياء التراث العربي

الإصابة في تمييز الصحابة   ابن حجر العسقلاني   دار الكتب العلمية

الأعلام   الزركلي   دار العلم للملايين

أعلام النساء

الأغاني   أبو الفرج الأصفهاني   دار الكتب العلمية

الأمالي   اليزيدي   عالم الكتب

أمالي   القالي   دار الكتب العلمية

أمالي   الزجاجي

امراء البيان   محمد كرد علي   دمشق

إنباه الرواة   القفطي   مؤسسة الكتب الثقافية

الأنساب   السمعاني   دار الجنان

البداية والنهاية   ابن كثير   دار الكتب العلمية

البصائر والذخائر   أبو حيان التوحيدي   لجنة التأليف

البيان والتبيين	الجاحظ	دار الكتب العلمية
تاريخ آداب اللغة العربية	جرجي زيدان	
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي	دار الكتب العلمية
تاريخ الطبري (الأمم والملوك)	الطبري	مؤسسة الأعلمي
تاريخ اليعقوبي	اليعقوبي	
تاريخ الشعر السياسي	أحمد الشايب	
التبصير في الدين	الإسفراييني	عالم الكتب
تهذيب تاريخ دمشق	ابن عساكر	دار الفكر
جمهرة أشعار العرب	أبو زيد القرشي	دار الكتب العلمية
جمهرة أنساب العرب	ابن حزم الاندلسي	دار الكتب العلمية
جمهرة خطب العرب	احمد زكي صفوت	المكتبة العلمية
الحضارة العربية الإسلامية	علي خربوطلي	
حلية الأولياء	أبو نعيم الأصفهاني	دار الكتب العلمية
الحيوان	الجاحظ	
خزانة الأدب	البغدادي	
خلاصة الذهب المسبوك	سنبط ننيتو	
رسائل الجاحظ	الجاحظ	
شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلي	دار الآفاق الجديدة
شرح شواهد المغني	السيوطي	
شرح مقامات الحريري	الشريشي	القاهرة
شرح الهاشميات	ابن رياش القيسي	عالم الكتب
الشعر والشعراء	ابن قتيبة	عالم الكتب
شعر الكميت بن زيد الأسدي	داوود سلوم	(مكتبة الأندلس بغداد ١٩٦٩)
صفة الصفوة	ابن الجوزي	

طبقات الشعراء	ابن سلاّم	
العقد الفريد	ابن عبد ربه	دار الكتب العلمية
عيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتب العلمية
فتوح البلدان	البلاذري	دار الكتب العلمية
فحولة الشعراء		
الفرق بين الفرق	ابن طاهر البغدادي	
الفهرست	ابن النديم	
فوات الوفيات	ابن شاكر الكتبي	دار الثقافة بيروت
القاموس المحيط	الفيروز آبادي	دار الكتب العلمية
الكامل في التاريخ	الذهبي	دار الكتب العلمية
الكميت بن زيد	عبد المتعال الصعيدي	دار الفكر القاهرة
لسان العرب	ابن منظور	
لطائف المعارف	أبو منصور الثعالبي	
مجالس العلماء	الميداني	دار الكتب العلمية
مجمع الأمثال		
مروج الذهب	المسعودي	دار الكتب العلمية
معجم الأدباء	الحموي	دار الكتب العلمية
معجم البلدان	الحموي	دار صادر
معجم شعراء الشيعة	المرزباني	
معجم ما استعجم	البكري	عالم الكتب
معجم المطبوعات العربية	يوسف سركيس	مصر
مقاييس اللغة	ابن فارس	
الملل والنحل	للشهرستاني وبالهامش (أبي حزم)	دار الفكر
المنتظم	ابن الجوزي	دار الكتب العلمية

مواقف في الأدب الأموي	عمر فاروق الطباع	دار القلم
المؤتلف والمختلف	أبو محمد الأزدي المصري	
النثر الفني	زكي مبارك	مصر
نكت الهميان	صلاح الدين الصفدي	
نهاية الأرب	القلقشندي	دار الكتب العلمية
الوافي بالوفيات	صلاح الدين الصفدي	
الوزراء والكتاب	الجهشياري	
وفيات الأعيان	ابن خلكان	
يتيمة الدهر	الثعالبي	دار الكتب العلمية

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع